الفصل الخامس

رواية

سلوى جراح

محظوظ من يكون في حياته فصل خامس

الاسم الثلاثي: عايده أحمد وهران

المهنة: صحافة إذاعية

تاريخ الميلاد: 1946/12/15

مكان الميلاد: حيفا، فلسطين

"مدام عايده، مدام عايده." التفت خلفها. كان شاباً في مقتبل العمر، أسمر نحيلاً بعينين سوداويين ووجه باسم. اقترب منها وهو يقول: "عفواً مدام عايده، أنا محمد طاهر من وزارة الإعلام جئت لاستقبالك، لكنك لم تنتبهي لليافطة الصغيرة التي أحملها." همهمت: "اهلاً بك يا محمد." أسرع يقول بصوته الرائق: "أرجوك أتركي لي كل شئ. أنا مكلف باستكمال كل الأوراق والتأشيرات. أنت ضيفتنا. أعطني أوراقك وتفضلي بالجلوس هنا. خمس دقائق وأكمل كل شئ." سلمته البطاقة التي ملأتها للتو بالمعلومات الخاصة بها، الاسم وتاريخ الميلاد والمهنة وجلست على المصطبة الخشبية القريبة. وضعت حقيبة يدها في حجرها، ودارت بعينيها في صالة وصول المسافرين. ناس من كل بقاع العالم يتراصفون في صفوف طويلة يحملون حقائبهم الصغيرة وأحلامهم الكبيرة، يتحدثون ويدورون بعيونهم في الوجوه حولهم. وموظفو المطار يدورون هنا وهناك، هذا يتسابق لتمرير جواز سفر رجل مهم وذاك يُحّي السيد المحترم وثالث يستجدي من موظف الجوازات تأشيرة أسرع من غيرها. منذ سنين لم تطأ قدماها مطار القاهرة. لم يتغير فيه شئ يذكر، تحسينات في المبنى هنا وهناك لكن الوجوه والأصوات والإحساس بالمكان كعهدها به.

عاد محمد طاهر يحمل أوراقها وجواز سفرها. انحنى أمامها: "كله تمام يا افندم. تفضلي حضرتك لنأخذ امتعتك." اعتدل في وقفته وهو يوسع لها الطريق لتنهض من جلستها. سارت أمامه. رأت حقيبتها، حاول أن يضعها على عربة. اقنعته أنها صغيرة وخفيفة لا تحتاج لعربة.

جرتها خلفها بعد إصرارها على ذلك. مرت من أمام موظف الجمارك حيث لافتة تقول"لا شيء خاضع للرسوم الكمركية." ابتسم الموظف المسؤول وهو ينظر إلى حقيبتها الصغيرة. تفحص جواز سفرها البريطاني وهمهم: " أهلاً يا أفندم." تمتمت عبارات الشكر. انتبهت لصوت مرافقها الشاب يقول: "السيارة، اتفضلي يا افندم، سنأخذك للفندق."

القاهرة في الليل مدينة يلفها الغموض، تخفي أكثر مما تظهر، ولعل هذا هو مكمن سحرها. كم جاءتها في سنين مضت لحضور مؤتمرات ومهرجانات ومعارض كتب لتنقل للعالم ما تشاهد وتقابل كبار رجال الفكر والأدب. كان لقاؤها بهم أشبه بحلم يتحقق، أسماء كبيرة عرفتها منذ سنين الصبا لكتاب وشعراء ومبدعين في مختلف مجالات الفن والأدب، لم يتجاوزوا حتى الأمس القريب عتبة أحلامها، التقتهم عبر تاريخ عمل امتد على مدى ربع قرن من الزمان وحاورتهم ومازحتهم وارتبط اسم بعض ما قدمت من برامج باسمائهم، فأضاف الكثير لرصيدها كإذاعية ناجحة ولمتعتها الفكرية. اليوم جاءت إلى القاهرة لغرض آخر، هي ضيفة لمهرجان سيكرمها ضمن عدد من الإعلاميين. هي لا تحب لقب إعلامي لأنه صار مبتذلاً يطلق بلا حساب بين الناطقين بالعربية، وليس له مرادف في اللغات الأخرى. فالعالم كله يُعرِّف من يعملون في مجال الإعلام بنوعية العمل الذي يقومون به، فهذا صحفي وذاك مقدم برامج تلفزيونية، أو قارئ أخبار أو مراسل، إلا العرب يطلقون كلمة إعلامي، على كل من يعمل في الصحافة المرئية والمطبوعة والمسموعة، ربما لأنها كلها مؤسسات تدار من قبل وزارة الإعلام، التي اختفت من بقية دول العالم منذ عقود.

كم تساءلت في السنوات القليلة الماضية، من هو الإعلامي، أهي المذيعة التي تقرأ كلاماً لا تفهم أبعاده، وتجري مقابلة مع شخصية لم تكلف خاطرها معرفة ما يكفي عنها، فتروح تسأل عن تفاصيل كان يجب أن تكون في مقدمة حديثها عن من تستضيف؟ أم مقدم البرامج الذي يعتبر نفسه نجماً وعلى ضيوفه أن يكونوا ممتنين له لدعوته لهم إلى برنامجه؟ أم المحاور الذي يتكلم أكثر من ضيوفه ويصرح بآرائه السياسية متجاوزاً البند الأول في قواعد المصداقية الإعلامية، الحيادية؟ أم الفتيات الحسنوات اللاتي يضعن طبقات سميكة من الألوان على وجوههن وينطقن بضع كلمات أمام الكاميرا؟

ما يزعجها حقاً هو أن تضاف كلمة كبير قبل ذكر أسماء بعض الإعلاميين والإعلاميات وكأن هناك مقياس خفي لحجوم وقيمة البشر، متناسين حقيقة مهمة هي أنه إن كان هناك كبير فلا بد من صغير، ومن يرضى أن يُكنى بالصغير؟ في الغرب يخاطبون الناس بأسمائهم وعنوان

الوظيفة التي عملوا فيها لسنين وتميزوا بها. المشاهير في العالم لا يحملون ألقاباً ولا يحتاجونها. تكفيهم أسماؤهم. كلهم لهم مكانتهم واحترامهم من الأسم الذي أثبت جدارته وكفاءته، حتى أمام كبار مسؤولي الدولة. فالوزير في كل دول العالم يحسب ألف حساب لمقابلة يجريها معه صحفي أو إذاعي متمرس، في حين يعتبر الوزير أو المسؤول العربي موافقته على إجراء مقابلة، تعطفاً من معاليه وفرصة ليملي أراءه ويقول ما يريد. بل يشترط معرفة الأسئلة بشكل مسبق وهو شيء لم تفعله ابداً خلال عملها الإذاعي. فالقاعدة أن تعطي ضيفك فكرة عن موضوع اللقاء دون أن تعطيه أسئلة مكتوبة.

ابتسم موظف الاستقبال في الفندق: "أهلاً وسهلاً مدام عايدة. حضرتك حتنورينا." شكرته على لطفه وسارت وراء الشاب الذي يحمل حقيبتها ومفتاح غرفتها ودعت الله صادقة أن لا يشرح لها شيئاً عن سر الثلاجة والتلفزيون والتلفون والحمام في الغرفة. فتح لها باب الغرفة ووضع حقيبتها على الحامل المخصص للحقائب دون أن يقدم شروحاً، اكتفى بالابتسام والانحناء والشكر على البقشيش، وخرج.

فتحت ستائر الباب المؤدي إلى الشرفة، ووقفت ترقبه في انسيابه الساحر متلألئاً في ليل القاهرة. همهمت مقطعاً من أغنية أم كلثوم "شمس الأصيل": "تحفة ومتصوَرة في صفحتك يا جميل." تحية اعتادتها كلما التقت النيل بعد غياب. أغلقت الستارة وبدأت تستعد لاحتلال غرفتها. فغرف الفنادق يجب أن تحتلها كما يفعل المحتلون المغتصبون، تفرش فيها أشياءك الشخصية وكأنها ملك صرف لك، وتستبيح كل ما فيها لتمحي آثار من احتلوها قبلك وتنسى أنها كانت لغيرك قبل أن تدخلها بساعات. أخرجت اغراضها من حقيبتها، علقت ملابسها في الخزانة، ووزعت أشياءها الصغيرة ما بين الحمام ومائدة الزينة. استلقت على فراشها بعد حمام ساخن. أغمضت عينيها. عليها أن تنام سيكون غدها يوماً طويلاً شاقاً. مدت ساقيها المنتفختين من الجلوس لساعات في الطائرة. هاجمتها فكرة ظلت طوال النهار تحاول أن تهرب منها، غداً سيتم تكريمها. سيمنحونها درعاً فضياً عليه بضع كلمات. سينادون على اسمها في القاعة الكبيرة. وقد يتهامس بعض الحضور، من هي عايده وهران؟ طبعاً سيفعلون، فهي ليست من نجوم التلفزيون. اليوم في عصر الفضائيات الناس تشاهد ولا تسمع. حتى حين يحضرون حفلاً موسيقياً، يصفقون ويصرخون ولا يستمعون.

تقلبت في فراشها. هل لازال هناك من يذكرها ويذكر برامجها؟ لا شك أن الناس نسوها، نسوا صاحبة الصوت الذي كان يخاطبهم من لندن. فقد كان ذلك قبل سنين، خمس سنين بالعد

والكمال وذاكرة الناس ضعيفة في خضم الضجيج الذي يصم الآذان في سوق الإعلام اليوم. ترى هل هناك من لازال يذكرها؟ ابتسمت. غير مهم. ستأخذ الدرع الفضي وتشكر القائمين على المهرجان على حفاوتهم ببضع كلمات وتنتهي الحكاية كما نصحتها صديقتها نوال. أغلقت عينيها. بدأ خدر لذيذ يتسلل إلى جسدها المتعب. تباعدت الأصوات في الممر. طُرق بابٌ وفُتح آخر، همس صوت، ثم غرق المكان في صمت عميق.

كان في استقبالها على باب القاعة المخصصة للاحتفال، مجموعة من الشباب والشابات. قدمت نفسها، سمعت كلمات الترحيب. أعطتها إحدى الشابات محفظة أوراق جلدية صغيرة وهي تقول بأدب جم: "اتفضلي يا مدام عايده كل التفاصيل موجودة في الملف. أوصل حضرتك للقاعة. اتفضلي." سارت ورائها، دخلت القاعة، أسرع المسؤول عن الاحتفال لاستقبالها: "أهلاً أهلاً يا مدام عايده. نوّرتي مصر كلها. تفضلي حضرتك. دعيني أعرفك على مجموعة الزملاء، أكيد حضرتك عرفاهم." خلال التعريف ترددت كلمة كبير عدة مرات وهو يقدم لها المدعوات والمدعوين الذين سيكرمون في حفل هذا اليوم. ابتسمت وهي تصافح أحدهم "الإعلامي الكبير"، فهي تعرفه جيداً. لم يفعل في حياته أكثر من الجلوس وراء مكتب كبير ظل ينمو مع الأيام لأنه كان رجل المهام الصعبة، رجل يحسن قول كلمة نعم لرؤسائه، ولا، لمن يعملون تحت إمرته. ابتسمت في وجهه. ألح عليها السؤال، هل سيكرمونه هو الآخر؟ تبرع بالجواب: "أنا يا مدام عايده عضو في لجنة التحكيم. سعدت جداً حين علمت أنك رشحت للجائزة هذا العام."

إذاً هو ليس مكرماً بل صاحب فضل على المكرّمين. هي تعرفه وتعرف أنه رفض ترشيح العديد من المبدعين العرب للجوائز التي تمنح في مصر بحجة يرددها باستمرار: "أهو حقاً شهير أنا لم أسمع به." وعليه صار من لم يسمع به الأستاذ يوسف لا يستحق التكريم. أتسعت ابتسامة الأستاذ يوسف، انحني بكرشه نحوها وهو يقول: "سعيد جداً يا مدام عايده، سعيد فوق ما تتصوري بوجودك معنا وبترشيحك لجائزة الدرع الفضي إنتي إعلامية كبيرة."

تأملته بصمت. تمنت أن تقول له إنها ترددت كثيراً في قبول الجائزة، وإن الدرع الفضي شغل عقلها لأيام بعد أن تلقت مكالمة من مكتب وزارة الإعلام المصرية يعلمونها أنها ستكون أحد المكرمين هذا العام في مهرجان الإعلام العربي. تساءلت طويلاً لم يكرمونها الآن وهي لم تعد تنتمي لعالم الأعلام منذ تقاعدت عن العمل قبل خمس سنين؟ ما الذي ذكرهم بها الآن؟ طال بها التردد حتى أن صديقتها الحميمة نوال صرخت غاضبة وهي تحدثها عبر الهاتف من بيروت: "والله أمرك عجيب، لو كنت معك في لندن كنت سأشد أذنك. ولك شو في؟ من ناحية تقولين لا أحد يهتم بالأسماء المعروفة حين يغادرون مواقعهم، وإن ذاكرة الناس ضعيفة، وحين يتذكرونك ويدعونك ليكرمونك، ترفضين وتتبغددين. شو قصتك بالضبط؟" همهمت محاولة أن تكون لبقة: "أنا مترددة لأني غير راضية عن حال الإعلام العربي ولا تعنيني الجوائز كثيراً." صاحت نوال: "يا بنتي اعقلي، اعملي بالمثل الإنجليزي، إن لم تقدر عليهم إنضم إليهم." تضاحكت عايده: " يا لك من منافقة، هذا هو النفاق بعينه." جاء صوت نوال هادئاً: "لا هذه دبلوماسية، مسايرة يا

شاطرة. علينا أن نفهم العالم ونأخذ منه ما يناسبنا. ولك إللي ما بتقدر عليه طبطب عليه." تعالى ضحك عايده. أسرعت نوال تقول: "يا عايده يا حبيبتي كفي عن مناطحة الحيطان، لقد كبُرتِ على ذلك." همهمت عايده: "أنا لا أناطح شيئاً أنا ببساطة غير راغبة بحضور الحفل ولا باستلام الدرع الفضي ولا أريد أن أذهب إلى القاهرة." أسرعت نوال تقول: "ولك اعتبريها إجازة. إذهبي وتفرجي على ما يحدث حولك. خذي جائزتك وتعالي إلى بيروت لنقضي معاً بضعة أيام. اشتقتلك." صمتت عايده. عادت نوال تقول: "أسمعي روحي اشتري فستان حلو شيك، وفرجيهم مين هيه عايده وهران. بعدك حلوة يا مضروبة. وبعدين وينيك، إحمدي الله على أنهم سيكرمونك وأنت على قيد الحياة فالمتعارف عليه أن لا يكرم المبدع في عالمنا إلا بعد موته لأنه حين يموت يطمئنون لغيابه وخروجه من ساحة المنافسة."

انقضى اليوم في التعرف على مجموعة المكرمين، رجال ونساء من دنيا الصحافة المكتوبة والمسموعة والمرئية. بعضهم كان بينها وبينهم إعجاب مشترك لسنين. دارت فناجين القهوة والأحاديث، ثم جاء مخرج حفل التكريم الذي ستنقله محطات التلفزيون مباشرة على الهواء، وأخذ جميع المكرمين إلى خشبة المسرح وشرح كيفية الصعود والهبوط من على خشبة المسرح ومكان الوقوف على المسرح عند استلام الجائزة وإلقاء كلمة الشكر.

مع انتصاف النهار عادت إلى فندقها لتستعد لحفل المساء. ستعمل بكل نصائح نوال. ستستمتع ولن تسمح لأي شيء أن يفسد أمسيتها. سترتدي الثوب الأسود الأنيق الذي اشترته للمناسبة، وستذهب إلى صالون الحلاقة في الفندق لتحسين مظهرها.

كان صالون الحلاقة الصغير خالياً من الزبائن. ترددت في الدخول، لكن ابتسامة الحلاق الشاب وترحيبه شجعاها على الجلوس على كرسيه. قررت أن تسلم أمورها للحلاق الذي ما أن عرف حكاية أمسيتها وموضوع التكريم، حتى راح يتراقص على أنغام وعوده بعمل "أجمل تسريحة في الدنيا عشان عيونك يا مدام عايده يا ست الكل." ثم بدأ يمتدح إذاعة البي بي سي وبرامجها المنوعة ويؤكد أنه لا يثق بالخبر مالم يسمعه من البي بي سي. شكرته على لطفه ومجاملته. استرخت في مقعدها ووجدت نفسها تنزلق إلى التفكير في موضوع ظلّت تحاول التملص منه مذ قررت الحضور إلى القاهرة لكن كرسي الحلاق هذا ككرسي الاعتراف، يجعلك تغوص في أعماقك وكثيراً ما تبوح بشيء مما في دواخلك للحلاق نفسه. رفعت عينيها نحو المرآة، تأملت وجهها، ترى هل سيحضر الحفل أحد من زملائها وزميلاتها السابقين؟ سيقولون لقد كبرت، فهم لم يروها منذ خمس سنين، والسنين تصبح أكثر تأثيراً كلما تراكمت على أعمارنا.

خمس سنين، كأنها الأمس القريب مذ تركت عملها في ذلك المكان الذي أمضت فيه سني الشباب. ما زالت تذكر كل تفاصيل الحياة في مبنى بوش هاوس الجميل. تعرف أنها تمتلك ذاكرة "فوتوغرافية" كما يقولون، ذاكرة تُصوّر الأحداث ومكان حدوثها بتفاصيل كثيرة واضحة، قد ينساهى الآخرون، أو يضيفون إليها بعض الرتوش غير الحقيقية حين يعيدون روايتها. أغلقت عينيها. رأت مدخل المبنى الجميل. دخلت وصعدت بالمصعد إلى الدور الرابع الذي يحتله القسم العربي. غرفة مكتبها إلى اليسار في أول الممر الطويل. مكتبها الخشبي الصغير، يواجه الجدار قرب النافذة الكبيرة العالية، التي تطل على ساحة داخلية تدور حولها أجنحة المبنى الكبير الأربعة. مازالت يداها تستشعران ملمس خشبه. كانت تحب أن تبقيه نظيفاً مرتباً فهي لا تحب الفوضى. تضع عليه بضع أشياء بسيطة، علبة نحاسية للأقلام وتقويم للسنة بأوراق تُقلّب كل يوم، كثيراً ما تكتب عليها ملاحظات ومواعيد مقابلات قادمة ورحلات إلى المدن العربية. وعلى الجدار أمامها لوحة للتعليق تتوسطها صورة لفيلسوفها المفضّل، حنظلة، الطفل الفلسطيني اللاجئ الذي يقف وقد أدار ظهره للعالم وذراعاه معقودتان خلفه متأملاً ما يحدث لفلسطين وأهلها. كانت تلصق على إطار اللوحة أوراقاً صغيرة صفراء تذكّرها بموعد حجز أستوديو لتسجيل مادة إضافية، أو لقاء ضيف مهم، أو بأحد مواعيد مديرها عاطف التي لا تنتهي.

ابتسمت كم كان عاطف مغرماً بعقد اجتماعات في مكتبه يرى فيها فرصة ذهبية للحديث مع الناس وجمع المعلومات واستغابة الآخرين. كان يجلس على مكتب كبير يواجه الباب وخلفه جدار. أي انه كان يتمترس ليدير شؤون الوحدة التي يترأسها. لكن عاطف كان حين يتعلق الأمر بصناعة البرامج والعمل الإذاعي الإبداعي، يلجأ إليها بدافع الحاجة الحقيقية.

سنين طويلة من عمرها انقضت في تلك الغرفة الصغيرة في الدور الرابع الذي يعلو المدخل الرئيسي لمبنى بوش هاوس، الذي بُني أصلاً ليكون مركزاً تجارياً يحمل اسم رجل الأعمال الامريكي إرفينغ بوش الذي مول المشروع، واعتُبر عند افتتاحه في اواسط عشرينيات القرن الماضي أغلى مبنى في العالم حيث بلغت كلفة بنائه حوالي مليوني جنيه استرليني. بابه الحديدي الضخم يعلوه تمثالان كبيران يرمزان للصداقة بين الولايات المتحدة وبريطانيا وتحتهما عبارة "من أجل الصداقة بين الشعوب الناطقة بالإنكليزية." لكن المبنى ضم بين جنباته على مر السنين من خاطبوا العالم بسبع وثلاثين لغة، من أوروبا وامريكا اللاتينية والشرق الأقصى. وكان "الكانتين" المكان المفضل للقائهم اليومي حيث يتجمعون ساعة الغداء لتناول وجبة ساخنة، تتبعها أقداح الشاي والقهوة والسجائر. كانوا يلتفون حول الموائد الصغيرة الموزعة في المكان، حسب البلدان التي جاءوا منها، وهم يتحدثون بلغات من كل أرجاء العالم ويناقشون شؤونهم كبيرها وصغيرها بمفاهيم الأماكن التي جاءوا منها.

القسم العربي كان أكبر الأقسام ويبث لساعات طويلة امتدت فيما بعد على مدى الأربع والعشرين ساعة. كان للقسم العربي خصوصيته، فرغم أن كل العاملين فيه يتكلمون لغة واحدة، إلا أنهم يحملون كل موروثات العالم العربي وخلافاته وصراعاته السياسية والثقافية. لذلك كانوا إن تنافرت حكوماتهم، حمى وطيس النقاش بينهم، وظهر تعصبهم الواضح للبلد وأحياناً للمدينة أو القرية التي جاءوا منها، وكثيراً ما يصل النقاش إلى لحظة الغضب التي تستدعي وساطة أهل الخير لإصلاح ذات البين. لكن السياسة لم تكن وحدها المسؤولة عن تفرقة "الصفوف العربية" في بوش هاوس، فكثيراً ما احتد النقاش حول الموروثات الثقافية والحضارية لشعوب المنطقة العربية. في أحد المرات اختلف زميلان، أحدهما من مصر والآخر من العراق، حين قال المصري: "يا جماعة أنا يكفيني فخراً أن أقول إن مصر هي التي علّمت العالم العربي القراءة والكتابة. فمعظم الأساتذة في العالم العربي مصريون." نظر إليه العراقي وهمهم بلهجته البغدادية: "يا معود، على كيفيك، يواش يواش. أين ذهبت مدارس البصرة والكوفة؟ نحن أبدعنا اللغة. نحن أهل اللغة. هل نسيت شيخ نحاة الكوفة الكسائي، والخليل ابن أحمد الفراهيدي شيخ نحاة البصرة وتلميذه سيبويه الذي تستشهدون به كلما أردتم التأكد من تفعيلة؟ شلون يعني علمتونا اللغة؟ ثم لا تنسى أن الأساتذة العراقيين هم الذين علموا الجزائريين اللغة العربية بعد أن كاد الفرنسيون ينسونهم لغتهم."

صمت الجميع. كان الزميل المصري يحاول أن يستجمع قواه. عاد يقول متحدياً: "المهم أن النهضة الحديثة في المنطقة العربية في بداية القرن العشرين، بدأت في مصر وليس في العراق."

تضاحك العراقي وهو يقول: "خلف الله على نابليون بونابارت اللي غزا مصر وجابلكم مطابع وكتب، بنية فرض سيطرته على مصر والمنطقة المحيطة بها، لكن حملته فشلت في تحقيق أهدافها الاستعمارية." استشاط الزميل المصري غضباً وصاح: "ما هذا الكلام؟ مصر كانت وستظل أم الدنيا شئت أم أبيت." تصاعدت حدة النقاش ووصل حد الغضب الحقيقي، وظل الرجلان لا يكلم أحدهما الآخر لفترة طويلة بعد أن كانا صديقيين مقربين.

"شعرك حيكون جميل جداً يا مدام، قصته حلوة لا طويلة ولا قصيرة." كان الحلاق يجفف شعرها بالمنشفة. عاد يقول: "حضرتك تحبي الفرق على الشمال ولا على اليمين؟" ابتسمت: "على الشمال لو سمحت." نظرت في المرآة وقالت بصوت خفيض: "لا تنزل الشعر على جبهتي فهذا يضايقني. أريده مرفوعاً عن جبيني." أسرع الحلاق يقول وهو يسحب خصلات من الشعر على جبهتها: "بس ده بيديلك فورمة جميلة يا مدام." أسرعت تقول: "لا، أرجوك. يضايقني." ابتسم الرجل وبدأ يعيد ترتيب الشعر من الأمام. ألقت عليه نظرة سريعة في المرآة أمامها. هو لا يعرف كم يضايقها حتى رؤية الشعر المنسدل على الجبين الذي يكاد يحجب العينين. لو سمعتها صديقتها نوال تناقش الحلاق هكذا، لقالت لها: " اتركيه يعمل لك تسريحة على ذوقه وبطلي نق."

كم تفتقد وجودها في لندن. ستلتقيها بعد المهرجان حين تذهب لزيارتها في بيروت. نوال وزوجها عبد المحسن غادرا لندن إلى بيروت بعد انتهاء الحرب الأهلية اللبنانية. كانا أقرب أصدقائها بعد أن تعرفت على عبد المحسن، في إحدى رحلات العمل لحضور مهرجان أدبي ونشأت بينهما مودة. وحين عادا إلى لندن دعاها إلى بيته ليعرفها بزوجته نوال، سيدة تقاربها في السن، لطيفة الشكل والمعشر، وصارت نوال توأم الروح ومخزن الأسرار. بل كانت نوال تبحث لها باستمرار عن عريس مناسب من بين الأصدقاء المشتركين، أشهرهم الدكتور سالم أبو الفضل، رجل في أواسط الأربعينيات من العمر، قصير القامة، ممتلئ، له وجه مكّور وعينان مكورتان، ويضع على أنفه نظارة سميكة مدورة، فيبدو كدوائر مكررة، وإن أمسك بيد محدثه، بيديه الطريتين اللتين تشبهان ملمس العجين، يظل يتحدث دون توقف بلهجته اللبنانية الجبلية وهو يقلب يد محدثه بين يديه أو يهزها مصافحاً.

التقته لأول مرة في بيت نوال خلال حفل رأس السنة الميلادية عرّفتها عليه بطريقة لا تخلو من خبث، قرصت عايده بذراعها وهي تقول ضاحكة: "دكتور سالم أستاذ الفلسفة، الست عايده وهران إذاعية عظيمة تعمل هنا في البي بي سي." ابتسمت له عايده ومدت يدها مصافحة، أحسّتْ

بالعجين الطري يغلف يدها وهو يهزها مصافحاً ويقول المدائح بالبي بي سي ومتابعته لبرامجها مذ كان طالباً في بيروت. ظلت يدها تهتز صعوداً وهبوطاً حتى ملأها شعور أنه لن يفلتها أبداً. أخيراً وجدت فرصة لتقول: "شكراً لاهتمامك دكتور." سحبت يدها من قبضته وهمهمت: "عن إذنك عليَّ أن أذهب لمساعدة نوال."

لحقت بنوال في المطبخ وهي تقول بعصبية: "ما هذا ياست نوال؟ ما هذه التحفة التي تقدمينها لي بمناسبة السنة الجديدة؟" همهمت نوال بصوت جاد: "ما ذا به؟ أستاذ في الجامعة يُدرّس الفلسفة وأحواله المادية جيدة ويبحث منذ سنين عن عروس تناسبه." أسرعت عايده تقول وهي تحمل طبقاً إلى مائدة الطعام: "وسيستمر بحثه لسنين قادمة بإذن الله يا ست نوال."

حمل الحلاق مرآة صغيرة لتعكس في مرآته الكبيرة تفاصيل التسريحة من الخلف وهو يقول: "إيه رأيك يا مدام؟" همست باسمة: "هكذا تمام شكراً." أسرع يقول وهو يضع اللمسات الاخيرة: "يا سلام يا مدام قصة شعرك ممتازة. إنتِ عملاها في لندن، مش كده؟" ابتسمت: "نعم، وتسريحتك حلوه. شكراً لك." نهضت من الكرسي، دفعت حسابها وصعدت إلى غرفتها لتستعد لأمسيتها القادمة.

كان الوقت مازال مبكراً على موعد الحفلة، فقررت أن تسترخي. طلبت بعض الشاي وجلست في الشرفة الصغيرة ترقب النيل وحركة الشارع والناس حوله. كان البائعون المتجولون يبيعون الفول السوداني الساخن والصميت والجبنة، وهناك من ينادي "ساقعة يا أزوزة"، والنيل يمضي كعهده هادئاً منساباً يحي العشاق الذين يجلسون على السور الحجري والمصاطب الخشبية يتشاكون ويبثون الشوق والرغبة. ابتسمت. ما أجملهم هؤلاء العشاق الصغار. هي أيضاً عرفت الحب لأول مرة حين كانت في مثل سنهم. أحبت زميل الدراسة الجامعية سامح، بكل ما في الشباب من قدرة على الحب. كان رومانسياً يغمرها بالكلام العذب والهدايا الصغيرة ويغرقها بوعود السنين القادمة التي سيملأها حباً يدوم ويدوم. صدقت كل وعوده. كانت أمها فرحة به لأنه فلسطيني، ابن أسرة عاشت في الكويت لسنوات حيث كان يعمل والده محامياً، ثم جاؤا للعيش في بغداد حيث تتوفر الدراسة الجامعية لابنهم.

والدها المحاسب القانوني، كان كمعظم الفلسطينيين يؤمن أن التعليم هو الوسيلة الوحيدة للعيش الكريم بعد أن تشتت الفلسطينيون في بقاع الأرض بنكبتهم التي أخرجتهم من بيوتهم وأرضهم. لذلك كان يريد أن تكمل تعليمها وأصر أن يكون الزواج بعد التخرج. الشهادة الجامعية أولاً، ثم الزواج، هكذا كان يردد. حاولت أمها أن تقنعه أن النصيب الجيد لا يأتي دائماً، وأن البنت تحبه، وأن الخطوبة لن تغير شيئاً ما داما سيلتقيان في الجامعة. رضخ أمام إلحاحها ورجاء والد سامح، ووافق على إعلان الخطوبة على أن يكون عقد القران والزواج بعد التخرج.

بعد حفل تخرجهما بأسبوع، تزوجا وذهبا في رحلة شهر العسل إلى اليونان. ذاقت معه طعم العواطف الملتهبة، والحب الذي يملأ كل لحظة من اليوم. أرضاها وأسعدها. كانت تشعر أنهما رمز لعاشقين شابين سيعيشان معاً "بتبات ونبات ويخلفان صبياناً وبنات" كما تقول نهاية قصص الحب التقليدية. وحين عادا لبغداد وجدا مفاجأة سارة تنتظرهما، تم قبولهما في الوظائف التي كانا يحلمان بها، هي مدرسة للغة الإنكليزية في مدرسة خاصة، وهو مترجم في مكتب معروف للترجمة. بدا أن الحياة تبتسم لهما بكل وجوهها.

في يوم عاد إلى البيت من عمله كعادته. كانت مشغولة بإعداد وجبة الغداء. دخل إلى المطبخ. بدأ يحاول مساعدتها كما يفعل دائماً. توقف فجأة وهو يقول إنه جائع ولا يستطيع أن ينتظر. همهمت باسمة: "خلص المسألة تحتاج لعشر دقائق يا سامح." صاح: "لم تأخرت في إعداد الطعام هكذا؟" فاجأها سؤاله. تضاحكت: "تأخرت في طريق العودة. أنت تعرف ازدحام الطريق من المدرسة إلى بيتنا. هانَت بس عشر دقائق." اقترب منها، وقف أمامها. ظنت أنه

يريد أن يقبلها. ابتسمت. رفع ذراعه ولطمها على وجهها لطمة أسقطتها على أرض المطبخ. وضعت يدها على خدها غير مصدقة. تجمد في مكانه لحظة ثم هوى إلى الأرض بجانبها وراح ينتحب ويستغفرها. لم تدري ماذا تفعل. وعدها أن لا يتكرر ذلك أبداً. كان أثر لطمته واضحاً على وجهها، أحمرّ الجلد وازرقت أجزاءً منه وبدت وكأن الدم سينفجر منها. حملها إلى السرير وأحضر منشفة، بللها بالماء البارد ووضعها على خدها وراح يكرر اعتذاره ويقبل يديها. ظلت لأيام لا تعرف ماذا تقول. تجنبت زيارة أهلها كي لا يروا أثر اللطمة على وجهها. وتغيبت عن عملها بحجة وعكة صحية.

مرت أيام حاولت أن تتجاوز مخاوفها وتستعيد ما عرفت معه من حب ودفء وطمأنينة. ثم تكرر ما حدث مرة أخرى بنفس الطريقة ولسبب تافه آخر. هذه المرة أمعن في ضربها، أمسك بشعرها الأسود الطويل وجرها وهو يضربها ويركلها. ذهبت لبيت أبيها. فتح لها أبوها الباب. جاءت أمها مسرعة. وقفت أمامهما وقد أحنت رأسها. صاحت أمها: "خير يمه شو في؟" رفع أبوها رأسها نحوه. شهقت أمها وهي ترى ازرقاق عينيها وتورم شفتيها: "مين يمه عمل فيكي هيك؟" ارتمت في حضن أبيها. ضمها. همهمت من بين دموعها: "خليني عندكم يابا. خليني عندكم. احميني يابا. احميني ما في غيرك يحميني." همهمت أمها بين دموعها: "تقبري قلب أمك يا حبيبتي الله يسامحه على هالعمله." همس أبوها وهو يصر على أسنانه: "الله لا يسامحه، أنا لا أسامحه، ولن أسامحه."

أجلسها أبوها على الأريكة وجلس بقربها وهي مستكينة على صدره. جلست أمها بقربها وهي تمسح على شعرها وتتمتم أدعيتها. رفعت عايده رأسها ودارت بعينيها بين أبيها وأمها: "لا أريده يابا. لا أريده يمه. سامعين؟ لا أريده. أنا كنت غلطانة. ظننت أنه يحبني وسيسعدني. لم أكن أتصور أنه سيفعل بي هذا، سيهدر كرامتي ويمتهن إنسانيتي." رأت الدموع في عيني أمها. همست وهي ترتمي في حجرها: "ذلني يمه ذلني وكسر قلبي." ضمتها أمها وراحت تهدهدها: "روقي يمه روقي يا حبيبة قلبي روقي يا بنيتي." دفنت رأسها في حجر أمها: "قلتلك ما بدي اياه يمه ما بدي اياه." أسرعت أمها تقول: "خلص خلص يمه، خلص يا حبيبتي. إللي بدك ياه بيصير." تأوهت بصوت كسرته الدموع: "يمه جسمي كله بيوَجعني. خليني بحضنك يمه. خبيني يمه، خبيني."

في المساء جاء سامح يعتذر، يرجو ويتوسل ومعه والده. استقبلهما أبوها في غرفة الصالون. جلسوا صامتين. تجنب أبوها النظر إلى سامح وتشاغل بالعبث بحبات مسبحته. كسر أبو

سامح الصمت وهو يهمهم بصوت خفيض: "يا أبو عايده، أهل السماح ملاح، وسامح جاء يستسمحك ويعتذر." ظل والد عايده على صمته. رفع عينيه إلى سامح. ارتبك وأطرق برأسه. عاد أبو سامح يقول: "سامح غلطان. الغلط فوقه وتحته. ما فعله خطأ كبير لا يجوز ولا يرضى به أحد. لقد أخطأ وهو معترف بخطئه. السماح منك يا أبو عايده." همهم والدها وهو يبحلق في حبات مسبحته: "السماح مش مني. السماح من عايده." أسرع والد سامح يقول: "طبعاً يا سيدي سيعتذر منها ويبوس إيديها قدامنا كلنا." سادت لحظة صمت. عاد والد عايده يقول: "بس هي رافضة اتشوفه أو تقابله." هتف والد سامح: "يا أبو عايده اقنعها. ستأتي أم سامح مع البنات غداً لتزورها وتستسمحها. بتكون عايده راقت شوي." أسرع والد عايده يقول: "لا داعي لذلك. أرجوك. ثم لا تظل تردد كلمة سماح. الكلمة لم تعد تعني شيئاً المسألة أكبر من ذلك بكثير."

صمت لحظة. نظر إلى سامح، التقت عيناهما. همس: "كيف بالله قدرت ترفع إيدك عليها؟ وين تعلمت هذه القسوة؟ وبتقول إنك بتحبها؟" هتف سامح بصوت كسير: "والله بحبها يا عمي والله بحبها. بحبها أكثر من روحي." همهم والد عايده من بين أسنانه: "والضرب أسلوبك في التعبير عن الحب؟" أسرع سامح يقول: "غلطة يا عمي، غلطة." رفع والد عايده يده معترضاً: "غلطة؟ شو يعني غلطة؟ غلطة تكررت مرتين وممكن تتكرر مرات؟" صاح أبو سامح: "لا. لن تتكرر. أعدك بذلك." جاء صوت والد عايده هادئاً متزناً: "لا أريد وعوداً. المسألة وما فيها أن ابنتي عايده ترفض العودة لسامح. انتهى الأمر بالنسبة لها وأنا لا ألومها. زيارتك يا أبو سامح على الرأس والعين. لكني رسول، وما على الرسول إلا البلاغ. عايده لا تريد سامح." عايده طالبة الطلاق منك يا سامح، لأنها لم تعد تستطيع أن تعيش مع شخص تخاف منه ومن لحظة جنونه." صمت لحظة وعاد يقول: "زي ما دخلتو بمعروف إطلعوا بمعروف. طلقها يا سامح. طلقها."

أصرت عايدة على طلب الطلاق وفشلت كل محاولات أهل سامح ومعارفهم في جعلها تعدل عن رأيها. أبوها وأمها لم يطلبا منها أبداً أن تجرب العودة إلى سامح. تركاها تختار. أمها قالت لها إن المرأة إن كرهت زوجها، "ببطل عاد ينفع تعيش معاه." ثم جاءها الخبر الصادم، سامح يرفض أن يطلقها ويصر على أنها زوجته ويجب أن تعود إلى بيت الزوجية. أصرت على موقفها ورفضت العودة إليه. رفع ضدها دعوى في المحكمة الشرعية. قال للقاضي إنه لن يضربها ويريدها أن تمنحه فرصة لإثبات حسن نيته. أحست به غريباً عنها وهي تقف معه أمام

القاضي، وترفض العودة إلى بيت الزوجية. بعد أيام جاءها بلاغ من المحكمة الشرعية، عليها أن تعود لبيت الزوجية وإلا ستصبح من وجهة النظر الشرعية، ناشزاً.

رضيت بمصيرها، أن تكون سجينته لسبع سنين قادمة، امرأة ناشز لا هي متزوجة ولا هي مطلقة. امرأة على ذمة رجل لا تريد العيش معه ولكنه زوجها بحكم الشرع، يحق له أن يتخذ بحقها تدابير قانونية تمنعها من السفر دون موافقته فهو زوجها شرعاً وله عليها حق الطاعة. كانت سنوات عجاف قضتها في تدريس اللغة الإنجليزية والتشاغل بالقراءة ومتابعة الحياة الثقافية التي تتوفر لها. وجود والديها حولها أعاد لها شيئاً من توازنها النفسي لكنها كانت تشعر أنها تقضي أيامها بلا هدف حقيقي خاصة بعد أن تزوجت أختها سمية التي تصغرها بثلاث سنين ورحلت مع زوجها إلى مقر عمله في الكويت وظلت هي تعيش مع والديها في بيت الأسرة في بغداد.

تقلص عالمها حتى ضاق عنها. كانت تشعر أنها في حصار يضيق كل يوم. صارت تخشى الذهاب إلى بعض الأماكن العامة خوفاً من ملاقاته بمحض الصدفة، وانقطعت خيوط صداقات كثيرة بينها وبين من ظلوا على علاقة بسامح. وجدت نفسها في الرابعة والعشرين من عمرها، مطلقة بعد زواج لم يكمل السنة الأولى من عمره. تناقل الناس أخبارها وانقسمت حولها الآراء خاصة بين زميلات وزملاء الدراسة. البعض قال إن سامح شخصية هوائية نزقة وإن دلال أهله له لكونه صغير الأسرة والإبن الوحيد، أفسده. آخرون أصروا على أن عايده بالغت في غضبها ولم تعطه الفرصة لإثبات حسن نيته.

كانت هي تسمع كل ما يقال حولها وتراجع الأمور مرات ومرات مع نفسها. لكنها حين تغوص في أعماقها تجد أنها فعلت ما كان عليها فعله، فهي الوحيدة التي عرفت لحظة غضبه المجنونة التي لن يوقفها شيء، لحظة لا تستطيع أن تحتمل فكرة أنها ستتكرر. فالرجل الذي يعتاد ضرب امرأته، لن يوقفه شيء عن تكرار فعلته. وحتى لو استطاع أن يغير ما بنفسه فهي غير قادرة على العيش معه لأنها تخافه، ولا تشعر بالأمان معه. تركت الحياة تسير بها حيث تشاء وحاولت أن تملأ حياتها بأشياء صغيرة حميمة تحبها في حياتها الجديدة مع والديها وحفنة الأصحاب حولها.

في أحد الأيام قرأت إعلاناً عن وظيفة شاغرة في الإذاعة في لندن. ملأت الاستمارة. جاءتها رسالة تدعوها إلى إجراء الامتحان للوظيفة في السفارة البريطانية في بغداد. ذهبت لإجراء الامتحان. بعد أقل من شهر، جاءتها دعوة للذهاب إلى لندن لاستلام عملها الجديد بعد نجاحها

في الامتحان. قالت لأبيها: "سأحاول الحصول على تأشيرة الخروج والفيزا. من يدري قد أنجح وأسافر." بعد أيام كانت كل أوراقها الرسمية جاهزة. كيف تم ذلك؟ لا تدري. أوصلها أبوها إلى المطار وقال إنه سينتظر لحين مغادرة الطائرة. جلست في الطائرة المتوجهة إلى لندن غير مصدقة. كانت خائفة أن يرغموها على النزول من الطائرة في أي لحظة بعد أن يكتشفوا خطأ ما في أوراقها الرسمية، أو أن يصلهم بلاغ بأنها ممنوعة من السفر أو حتى أن يأتي سامح إلى الطائرة ويرغمها على النزول منها.

حين لامست عجلات الطائرة أرض المطار في لندن، تنفست هواء الحرية الذي افتقدته لسنين. تمنت أن يكون لديها ممحاة تمحي كل ما مر بها وتزيله من الذاكرة. أحزنها أن تكون مازالت ناشزاً كما يقولون. ما أبشع هذه الكلمة، فالنشاز في الموسيقى هو الخروج عن النغم المتناسق، وهي ناشز لأنها خرجت عن طاعة رجل أهان كرامتها. حين حصلت على ورقة الطلاق، اعتبرتها شهادة ميلاد جديدة لحياة جديدة في مكان جديد. كانت سعيدة رغم أنه كان عليها أن تتعلم الكثير وتقبل الكثير وترفض الكثير. فالمشكلة الحقيقية للوافد الجديد على الحضارة الغربية هي إيجاد هذا الحل الوسط بين استيعاب الجديد حد التشبع، ورفض كل شيء والإبقاء على الموروثات القديمة. حتى اللغة الإنكليزية التي درستها ودرست آدابها وعملت مدرسة لها لسنين، اكتشفت أن عليها أن تتعلم الكثير من كلماتها المتداولة في الشارع. فالأدب الإنكليزي الذي درسته لم يعلمها أن البصل الأخضر اسمه بالإنكليزية، بصل الربيع.

امتلأت قاعة الاحتفال بالمدعوين والمشاركين في المهرجان والمكرمين وأسرهم. قادتها فتاة حلوة مبتسمة إلى مكانها في الصفوف الأولى لتكون قريبة من المسرح وهمست: "مدام عايده كوني مستعدة فأنت الاسم الخامس بين المكرمين العرب." شكرتها وراحت تجول بنظرها في أرجاء القاعة علّها تتعرف على وجوه تعرفها. رأت وجوهاً كثيرة تشاهدها على شاشة التلفزيون فالتلفزيون اليوم هو المهيمن على ساحة الإعلام العربي رغم أن معظم ما يقدم على قنوات التلفزيون لا يتعدى كونه برامج إذاعية مصورة. تذكرت وجه أحد نجوم التلفزيون حين واجهته بهذه العبارة، غضب وثار وقال لها: "كيف تقولين ذلك." ردت بهدوء: "بكل ثقة. ما ضرورة شاشة التلفزيون لنقل حوارات مملة أو لقاءات عبر الهاتف، أو صورة شخص يصرخ وراء مكتب كبير. التلفزيون يعني متعة بصرية، لا أن تبحلق في الشاشة بملل شديد وتتسلى بالأكل."

عادت تلتفت حولها، هذه تعرفها ممثلة شهيرة. يا إلاهي ماذا فعلت بنفسها. لقد تغيرت ملامحها بفعل عمليات التجميل المتكررة حتى صار وجهها بلا تعبير، كيف تمثل بوجه شمعي مشدود يكاد أن يكون بلا ملامح متحركة وشفاه تشبه منقار البطة. هي فكّرت مراراً في إجراء عملية لإصلاح بعض مما أفسده الدهر ولكنها تخشى الجراحة، وكلما عاودتها الفكرة، استعادت ما كانت تقوله زميلتها العتيدة وليده: "الرجل الذكي لا يحب الجمال المبهر بل الجمال الهادئ الذي يتيح له أن يكتشفه بتأمل وتروي." كانت تدفع خصلات شعرها الأسود عن جبينها وتنظر إليها بعمق عينيها السوداوين لتضيف: "ليس هناك امرأة غير جميلة. هناك فقط من لم تجد من يكتشف سر جمالها، أو من ليس في دواخلها جمال تعكسه."

فجأة شعرت بقلبها يهوى وبدقاته تتسارع. أخذت نفساً عميقاً. شعور غريب هذا الذي ينتابنا قبل الظهور في الأماكن العامة، خبرته مراراً حين كانت تقوم بمهمة عريف الحفل في العديد من المناسبات العامة وحفلات الجالية العربية في لندن. ابتسمت لنفسها، ستصعدين إلى خشبة المسرح أمام هذا الجمع الغفير كما فعلتِ مراراً من قبل وتقولين بضع جمل، وستفعلين كل ذلك بلباقتك المعتادة، اهدأي.

تعالى صوت المذيعة الحسناء وهي ترحب بالحضور، وتقاسمت التحايا والكلام مع مذيع شاب. وبدأت مراسم الحفل. يجب أن تركز انتباهها، ستكون الاسم الخامس بين المكرمين العرب. سمعت اسمها: "الإعلامية العربية السيدة عايده وهران لما قدمته من أعمال إذاعية ناجحة عبر ربع قرن من الزمان من القسم العربي بهيئة الإذاعة البريطانية." قامت من مكانها، تعالى حولها التصفيق. سارت بخطى واسعة نحو المسرح. صعدت الدرجات القليلة، استقبلتها فتاة شابة

بثوب سهرة براق وقادتها إلى حيث يقف الوزير، صافحها وسلّمها جائزتها، درع فضي في علبة مغلفة بالمخمل. انحنت للجمهور. لمعت عدسات المصورين. صفق الحضور. شكرت المهرجان ومنظميه على هذا التكريم الذي تعتز به كثيراً. سارت خطوات وهبطت من الناحية الأخرى للمسرح وعادت تجلس في مقعدها. استقبلها من كانوا يجلسون حولها بابتسامات وعبارات التهنئة. استمر صعود المكرمين ونزولهم من خشبة المسرح. ثم أضيئت أنوار القاعة وتعالت أصوات الحضور. غادرت مقعدها وسارت نحو باب الخروج. سمعت اسمها يتردد. التفتت خلفها. كانت فتاة بملابس السهرة تسرع نحوها وبيدها مايكروفون. اتسعت ابتسامتها وهي تقول: "مدام عايده عايزين نعمل مع حضرتك مقابلة للتلفزيون لو سمحت."

قادتها قبل أن تتمكن من الاستيضاح منها إلى أحد أركان صالة الاستقبال وبدأت تسجل معها لقاءً تلفزيونياً: "ما هو شعورك بعد حصولك على هذه الجائزة يا مدام عايده"؟ تذكرت النكتة التي تجيب عن هذا السؤال بالقول: "شعور أي مواطن يستلم جائزة." أحست بدوار خفيف. حاولت أن تقدم نفسها وتتحدث عن بعض جوانب تجربتها في العمل الإذاعي. لكن المذيعة الشابة لم تكن معنية بكل ذلك، كانت تريد أن تسمع مديحاً بالمهرجان ومنظميه. وجدت نفسها تجيب على أسئلة لا علاقة لها بكل ما تعلمت ومارست في فن إجراء المقابلات. أنهت المقابلة وهي تسترجع في ذهنها القواعد الأساسية لأصول المقابلة، أعرف ضيفك، أي اجمع قدر ما تستطيع من معلومات عنه، واسردها في سطور قليلة كي لا تربكه وتضيع وقتك في أسئلة ساذجة. لا تسأل أسئلة مركبة، لماذا وكيف وأين، ولا تسأل سؤالاً جوابه نعم أو لا.

انتهت المقابلة وتوجهت مع المكرمين إلى حفل العشاء المقام في مطعم عائم على النيل. وجدت نفسها على مائدة وسط مجموعة من العاملين في القنوات الفضائية. وجوه شابة لا تعرفها. عرّفوها بأنفسهم وامتدحوا البي بي سي وطاقم العاملين فيها. جلست بينهم تحاول أن تجد لنفسها الدور المناسب. هي من جيل لا يعرفه هؤلاء الشباب. بعضهم حاول أن يعتذر لأنه لا يسمع الإذاعة، والبعض الآخر جاملها مؤكداً لها أن "الوالد" من مستمعي إذاعة البي بي سي منذ سنوات. ابتسمت مجاملة. هي الآن في سن الوالد والوالدة لهؤلاء الشباب. لا بأس، ليكن. بدأت تسأل عن الأحوال والأوضاع في العمل والمتغيرات الجديدة، وهي تتناول وجبة العشاء. كان الطعام لذيذاً خاصة السمك و"الجنبري" الذي تحبه جداً وتطلبه كلما زارت القاهرة. كانت جائعة فهي لم تتناول شيئاً منذ الفطور. انتهى العشاء وبدأت تفكر بالعودة إلى فندقها. حملت جائزتها وحقيبة يدها الحريرية الصغيرة، حيّت الجميع وسارت نحو باب القاعة. طلبت من المنظمين سيارة لتأخذها إلى فندقها.

كانت الساعة حوالي الثانية صباحاً حين دخلت إلى الفندق. سارت في البهو الكبير، كان هناك بضعة أشخاص يجلسون في قاعة الاستقبال يتحدثون ويدخنون السجائر. وقفت أمام باب المصعد وراحت تبحث في حقيبة يدها عن قطعة البلاستيك الصغيرة التي تفتح باب الغرفة. فجأة سمعت صوتاً خلفها يهمس: "مبروك." أغمضت عينيها وتجمدت في مكانها، أحست أن قلبها سيتوقف. ستموت بالسكتة القلبية وهي واقفة هكذا أمام باب المصعد. انفتح باب المصعد أمامها. رأت نفسها في المرآة الكبيرة في داخله. بدت كشبح وهي تبحلق في الفراغ أمامها. ظلت في وقفتها.

انغلق باب المصعد. عاد يقول: "كيفك يا عايده"؟ التفتت نحوه ببطء. كان يقف مبتسماً. بدا أنيقاً بقامته الطويلة وبدلته السوداء وربطة عنقه الأنيقة. همس باسماً: "مساء الخير. ألف مبروك رغم إنني أعرف أن الجوائز لا تعنيك كثيراً." حاولت أن تبتسم. انحنى بهامته نحوها: "ألن تردي عليَّ يا عايده؟ كيف أنتِ؟ اشتقتُ لسماع صوتكِ." ظلت على صمتها تبحلق في وجهه. همهم من جديد: "ما زلتِ كما كنتِ دائماً، بهية وجميلة." رأت عينيه. ما زالتا كما تعرفهما، فيهما ذاك الحزن العجيب الذي يصعب فهمه. تنحنحت: "ماذا تفعل هنا"؟ تضاحك: "أهنئك بجائزتك." ابتسمت: "أعني ماذا تفعل في القاهرة؟" همهم: "أدير مكتباً صحفياً لوكالة أنباء دولية." تأملته بصمت. هو كما تعرفه لم يتغير فيه شيء. اسرعت تقول: "لم أكن أعرف أنك في القاهرة. ظننتك مستقر في دمشق." تلّفت حوله: "أنا في القاهرة منذ أكثر من سنتين. هل سنظل واقفين أمام المصعد هكذا؟ ألا تريدين فنجاناً من الشاي؟" أحست بدوار خفيف. همهمت: "شاي؟ في هذا الوقت؟ الساعة الثانية صباحاً يا سعيد؟" ابتسم وهو ينحني نحوها: "اشتقت لسماع اسمي كما تنطقينه." أبعدت نفسها عنه. تضاحك: "عايده، هل نسيت أن هذا هو موعد شرب الشاي في القاهرة؟ الكافيتريا في الطابق الأول تظل مفتوحة لأربع وعشرين ساعة. تعالي نشرب فنجان شاي."

أرادت أن تقول لا، أنا متعبة كان يومي طويلاً وتعتذر وتصعد إلى غرفتها. تخيلت حالها لو فعلت ذلك، سيجفوها النوم وستكره عنادها وستلعن غباءها وتتمنى لو أنها شربت معه فنجان الشاي وسمعت بعض أخباره. سارت بجانبه صامتة. انحنى بقامته نحوها وهمس: "كنت كالأميرة على خشبة المسرح. طلتك حلوة وفستانك جميل كعهدي بك." همست: "هل كنت بين الحضور؟" أسرع يقول: "طبعاً. هذا جزء من عملي، تغطية المهرجانات التي يكرم فيها المشاهير، فكيف إذا كنت أنت بينهم."

كان في الكافتيريا بضع زبائن. جلسا حول طاولة صغيرة متقابلين. ابتسمت، نفس الطريقة في الجلوس، ينحني ليطل على من معه، وتبدو الطاولة صغيرة جداً حين يفرد ذراعيه حولها. وضع النادل أقداح الشاي على الطاولة. رشفت من فنجانها. همس وعيناه تدوران في وجهها: "يعجبني شعرك القصير. كتير لابقلك." أحست بشيء من الارتباك. مست شعرها بأطراف أصابعها: "شكراً. تخلصت من شعري الطويل منذ فترة." لم يتغير فيه شئ، مازال بنفس اللطف والهدوء. ازدادت ثقته بنفسه مع النجاح والتطور في عمله، لم يعد ذاك الفتى الذي جاء به عاطف قبل، عشر سنين إلى غرفة التدريب.

انتبهت على صوته يقول: "ماذا تفعلين هذه الأيام"؟ رفعت كتفيها إلى أعلى وشوحت بيديها: "لا شيء، لا أفعل شيئاً. تركت العمل منذ سنين كما تعلم. أنا متقاعدة." تعالى ضحكه: "ما أعذبها من فمك يا عايده. متقاعدة؟ أنت متقاعدة؟ كيف يكون ذلك؟ أنت مليئة بالحياة فكيف تكونين بل عمل؟" أسرعت تقول: "ليس تماماً، لدي أشياء كثيرة أفعلها وتشغل وقتي. المهم أنني لا أتذمر من فكرة التقاعد، خاصة وأنني أصبحت أحب الهدوء والسكينة ولا أطيق الضجيج والزحام." تأملها باسماً: "لا أستطيع أبداً أن أتخيلك بلا عمل." استرخت في كرسيها: "من قال لك أنى بلا عمل. صحيح أنني لا أذهب إلى وظيفة يومية لكنني أعمل. أكتب مقالات أنشرها في بعض الصحف، أتابع ما يجري وألتقي بالأصحاب في الندوات الثقافية والمحاضرات، وأقرأ. أصبح لدي الوقت لأقرأ وأعيش كما يعيش البشر الأسوياء الذين لا يلهثون وراء العمل." ضم يديه تحت ذقنه كعادته حين يجلس أمام طاولة: "المهم أنك سعيدة."

سرحت بعينيها بامتداد القاعة وهزّت رأسها بالإيجاب. لفهما الصمت. عادت تقول: "أسمع، دعك مني وحدثني عن عملك الجديد. هل تحبه؟" تضاحك: "أظنني أحبه ولكنه مثل كل ما نحب، لا يخلو من مشاكل كثيرة." حدثها عن بعض متاعب مهنته كمسؤول عن مكتب يعنى بمتابعة أحداث الساعة، خاصة حين يتعلق الأمر بالقضايا العربية الساخنة، التي يخاف المراسلون المحليون من الخوض فيها حين تمس الممنوعات في بلادهم. همهمت: "لذلك كانت البي بي سي تحرص في الماضي على أن يكون مراسلوها أجانب وليس من أبناء البلد." صاح ضاحكاً: "أنا أجنبي، أنا سوري يحمل جواز سفر بريطاني، لذلك كثيراً ما أتحمل المسؤولية عنهم بصفتي مدير المكتب. المهم أننا ندرك ذلك وندرب مراسلينا على أن يقولوا ما لابد من قوله بمهنية عالية وبدون تجاوز للحقائق الموضوعية. أي أننا نقول دون أن نتجاوز الممنوعات كما كنت تقولين لنا زمان يا عايده."

كانت أقداح الشاي أمامهما قد فرغت. نظرت في ساعة يدها. قامت من جلستها وهي تقول: "أتمنى لك كل التوفيق فيما تفعل. يجب أن أذهب للنوم أنا متعبة فعلاً. أشكرك على كل شيء، وعلى حضورك الحفل، رغم أنه جزء من عملك، وعلى زيارتك لي وعلى فنجان الشاي وعلى ..." وقف أمامها مبتسماً: "اسمعي، ما هو برنامجك للغد؟" ابتسمت: "غداً سأغادر إلى بيروت لأقضي بضعة أيام مع نوال." بدا عليه شئ من الانزعاج: "لم هذه العجالة؟ القاهرة جميلة في بداية الربيع." أسرعت تقول: "أنا جئت بدعوة ليومين فقط من قبل وزارة الإعلام، لأذهب بعدها في إجازة قصيرة لبيروت قبل العودة إلى لندن." وضع بعض النقود عل الطاولة وسار وراءها وهو يقول: "إذاً سأوصلك غداً إلى المطار." همهمت: "لا تتعب نفسك يا سعيد؟ أرجوك، أنا ضيفة وهناك سيارة ستأخذني إلى المطار غداً." توقف عن السير. وقف أمامها وهو يقول بنبرة جادة: " عايده أرجوك كفى. سأوصلك إلى المطار، لا لأنك بحاجة لسيارة توصلك ولكن لأنني أريد أن أوصلك. متى موعد رحلتك؟" همهمت: "الخامسة مساء." أسرع يقول: "عظيم. سأكون في الفندق غداً عند الساعة الحادية عشرة صباحاً. سنتناول طعام الفطور وآخذك إلى المطار." تأملته بصمت. همس وهو ينحني باتجاهها: "أسعدني أن أراك بعد كل تلك السنين. تصبحين على خير يا عايده. سأنتظرك غداً هنا في الاستقبال عند الحادية عشرة."

أسرع خطاه نحو باب الخروج. توقف وراح يرقبها تقف أمام باب المصعد وتبحث عن قطعة البلاستيك الصغيرة التي تفتح باب غرفتها في حقيبة يدها الحريرية.

استلقت في فراشها. مدت جسدها المتعب من عناء يوم طويل. أحست بالخدر يتسلل إليها. حاولت أن تغمض عينيها. ملأ رنين صوته أذنيها. سعيد صبحي. لم تسمعه أو تكلمه مذ تركت العمل. التقته أول مرة حين أحضره مديرها عاطف إلى الغرفة التي كانت تدرب فيها مجموعة من الشباب والشابات ليصبحوا قادرين على تقديم برنامج إذاعي للشباب. فقد كان القسم العربي بهيئة الإذاعة البريطانية يريد أن يقدم نفسه لجمهوره العريض حول العالم العربي بوجه أكثر شباباً يجذب الجيل الجديد ويواكب المتغيرات الكثيرة حوله. لتحقيق ذلك تم اختيار مجموعة من الشباب في عشرينيات العمر، من الجنسين لتقديم برنامج عن حياة الشباب ومشاكلهم حياً على الهواء من البي بي سي، وكان عليها أن تدربهم على كتابة نص جيد وإجراء مقابلة ناجحة واختيار الموسيقى المناسبة، لإعداد برنامج يقدم على الهواء كل يوم جمعة.

كانت في غرفة التدريب، تجلس مع المتدربين حول طاولة في وسط الغرفة، حين دخل عاطف رئيس القسم الغرفة. حيا الجميع بابتسامته المعهودة، ثم التفت وراءه قائلاً: "تفضّل يا سعيد." دخل الغرفة شاب طويل القامة يحاول أن يبتسم وهو يحني رأسه محيياً. عاد عاطف يقول: "يا ستي، هذا سعيد صبحي. سعيد هذه هي السيدة عايده وهران، زميلتنا العزيزة المبدعة. سعيد يا عايده سيتدرب معكم فأرجو أن تجدي له مكاناً بينكم." رفعت عينيها نحو القادم الجديد، كان شاباً في الثلاثينيات، على قدر من الوسامة بعينين سوداوين تشعان ذكاءً وفضولاً. مد لها يده، مصافحاً وهو يقول بصوت هادئ مهذب: "الست عايده غنية عن التعريف، كلنا يعرفها ويسمع برامجها الجميلة، ويسعدني أن أتعلم منها." سحبت يدها وعادت تنظر إلى عاطف وفي عينيها غضب مكتوم: "لكننا وصلنا مراحل متطورة من التدريب كما تعرف يا عاطف وأصبحنا على وشك تقديم البرنامج على الهواء في نهاية الشهر القادم كما تعرف." ابتسم عاطف وهو يقول بأسلوبه المعروف في التودد حين يحتاج لتمشية أموره: "معلش يا عايده، حنتكلم بعدين." قالها وخرج.

هكذا هو دائماً، يدخلها في متاهات ليس لها أول ولا أخر. كانت مازالت على جلستها مع فريقها حول الطاولة. عادت تنظر إلى القادم الجديد الواقف بجانبها. قامت من كرسيها وهي تقول: "تفضل بالجلوس، عفواً، نسيت اسمك." أسرع يقول: "سعيد. سعيد صبحي. سأحضر كرسياً ست عايده." أسرعت تقول: "لا داعي، تفضل أجلس مكاني. هل سبق لك العمل في إذاعة؟" همهم وهو يجلس بقامته الكبيرة على حافة كرسيها: "لا أنا بعيد تماماً عن العمل الإذاعي. أنا خريج جامعة دمشق فرع صحافة. وأنا هنا في لندن للحصول على شهادة الماجستير في الإعلام." ابتسمت عايده: "إذاً أنت مازلت طالباً." أسرع يقول: "نعم، ولكني عدت للتلمذة بعد

سنين من العمل في الصحافة. عملت في إعداد الصفحة الأدبية لصحيفة يومية ناجحة لبضع سنوات في دمشق." همهمت عايده وهي تجلس على حافة النافذة الخشبية العريضة: "ولماذا تريد العمل في الإذاعة؟" تضاحك: "أريد أن أحصل على شهادة الماجيستير، وأحتاج لأن أعمل."

أحست أنها تمادت في سؤاله عن شؤونه الخاصة أمام بقية الفريق. تنحنحت بحثاً عن طبقة صوتية أقل عداءً. اسندت كفيها على الحافة الخشبية العريضة للنافذة الكبيرة وهي تقول بصوت هادئ: "الواقع يا سعيد نحن هنا نعد الشباب الذين تراهم لتقديم برنامج إذاعي جديد عن حياة الشباب، الدراسة وآفاق العمل في المستقبل، والمشاكل النفسية والاجتماعية والهوايات. وأهم ما في هذا البرنامج الجديد أنه سيكون برنامجاً تقدمه أصوات شابة جديدة لم يعرفها المستمعون من قبل. دعني أعرفكَ على المجموعة، دينا، سمر، هالة، سمير وفجر. أنا كما تعرف أعمل هنا منذ سنين لذلك." قاطعها بعجالة: "طبعاً يا ست عايده أنت غنية عن التعريف. كلنا يعرفك ويسمع برامجك." دارت بعينيها بين الوجوه. سادت لحظة صمت. عادت تقول: "هل تعتقد أنك تمتدح شخصاً حين تصفه بأنه غني عن التعريف؟" اتسعت عيناه. بدا عليه الارتباك همهم: "عفواً ما قصدته أننا نعرف من أنتِ. فبرامجك معروفة وناجحة."

قامت من جلستها. دارت حول الطاولة الكبيرة وعادت تتوقف أمام النافذة وهي تقول: "أشكرك على إثارة هذا الموضوع المهم في دنيا الإعلام. اسمعوني جيداً. نحن نعمل في مجال الإعلام وفي العالم العربي يسموننا إعلاميون، وهي كلمة كما هو واضح، مشتقة من فعل أعلم. أي أن المفروض أننا من يُعلم الأخرين بالحقائق عن ما يجري حولنا، والتعريف بالناس الذين نستضيفهم في برامجنا من أهم الحقائق الإعلامية، من هو هذا الشخص وماهي انجازاته ولم نستضيفه. كلمة غني عن التعريف، قد تقال عن كبار المشاهير من باب الإيجاز، في حفل ساهر، لكننا حين نستضيف شخصية لنجري معها حواراً، يجب أن نعرف مستمعينا بها. وإن كان هناك شخصٌ غني عن التعريف، فمعنى ذلك أن الناس يعرفون عنه كل شئ، فلم نستضيفه ونحاوره؟ أرجوكم لا تقولوا غني عن التعريف، عرفوا ضيفكم باختصار ثم ابحثوا عن التفاصيل الصغيرة الممتعة التي تستهوي المستمع وادخلوها في الحوار." جالت بعينيها بين الوجوه المبتسمة حولها. عادت تقول: "لنواصل من حيث كنا وأرجو أن يشاركنا سعيد في البحث عن موضوعات لحلقة الغد التجريبية."

بدأت بتوزيع المهام على المتدربين وهي تتساءل كيف يمكن أن تقنع عاطف بالتخلص من هذا القادم الجديد الذي يقتحم عالماً تعبت في إعداده. سيفسد وجوده التناغم الذي نما بين المجموعة خلال الاسابيع الماضية.

في استراحة الغداء ذهبت إلى مكتب عاطف. كان يجلس كعادته وراء مكتبه الكبير وأمامه كومة من الأوراق يوقعها تباعاً. لمحها بطرف عينه. صاح: "تعالي يا عايده." جلست على حافة الكرسي وهي تقول: "ما هذا الذي فعلته؟ من هو سعيد أبو النحس المتشائل هذا؟[1]" تضاحك عاطف: "سعيد صبحي يا عايده." همهمت: "حسناً من هو؟" أسرع يقول: "يبدو أنه صحفي جيد. يفهم في الأدب." ابتسمت: "وما علاقة كل ذلك ببرنامج الشباب؟ علي أن أبدأ معه من ألف باء العمل." قلب الأوراق أمامه: "يا ستي جربيه ما الضير في أن نساعده، وإن لم يعجبك فسنجد له حلاً. لا تعقدي الأمور يا عايده تعالي أنا عازمك على الغدا. هيا نذهب إلى الكانتين." ابتسمت، هكذا هو دائما يذيب المشكلة حتى تكاد تبدو تافهة، ثم يقنعك تدريجياً أن لا وجود لها، بعدها يجعلك تفعل ما يريده هو، وأنت لا تدري إن كنت راضياً أم لا.

في الكانتين، رأت سعيد صبحي يجلس بين فريق برنامج الشباب، يبتسم لنكاتهم وطُرفهم. بدا بينهم كأستاذ بين تلاميذه، يجلس كما يفعل معظم الرجال طوال القامة، بشئ من الانحناء، يبتسم بحياء يشفُّ عن شخصية هادئة وطمأنينة داخلية. ولكن رغم ذلك، ورغم وسامته الرصينة، شعرت بالنفور منه. لقد فرضوه عليها وهي لا تريده كي لا يخلخل موازين فريقها الشاب. هي ببساطة، لا تريد هذا السعيد. همست بشيء من الرجاء: "عاطف أرجوك اسمعني. هذا الرجل هل نحن مجبرون على تدريبه؟" تضاحك: "لا، لسنا مجبرين لكنه صديق لصديق عزيز توسط له. إنه بحاجة للعمل ليكمل دراسته. جربيه يا عايده وأعدك إن وجدتِ أنه لا يصلح سنقول له مع السلامة. فقط أعطيه فرصة، جربيه." همهمت بسخرية: "ومن هو الصديق العزيز؟" أسرع يقول: "شخص تعرفينه وتحبينه." ضيقت عينيها: "من؟" تضاحك عاطف وصمت. تضاعف إحساسها بالغيظ. إذاً شخص ما توسط له وفرضوه عليها. من هو يا ترى؟ هو بحاجة ليعمل ليكمل تعليمه وهي لا تحب أن تكون السبب في قطع رزقه. لكنها بذلت جهداً كبيراً في تدريب فريق الشباب ولن تسمح لكائن من يكون أن يعيق سير العمل أو يؤثر سلباً على الفريق.

حين عادوا إلى غرفة التدريب، أخذته إلى الأستوديو أعطته مادة إخبارية وطلبت منه أن يقرأها. قرأها بذكاء وبتقطيع منطقي جيد وبلغة عربية سليمة. أدهشها أداؤه. قالت له باسمة: "تقول إنك

[1] سعيد أبو النحس المتشائل شخصية رئيسية في رواية المتشائل لأميل حبيبي.

لم تعمل في إذاعة من قبل. كيف تعلمت أن تقرأ هكذا؟" أجاب ضاحكاً: "حاولت أن أقلد المذيعين في طريقتهم في الأداء." لم تستطع أن تمنع نفسها من الضحك: "هل تستطيع أن تعد تقريراً؟ تصفح صحف هذا اليوم وانتقي خبراً طريفاً يصلح لأن يكون مادةً لتقرير مسل وممتع." بعد نصف ساعة، عاد وهو يقول: "لقد وجدت خبراً طريفاً. اسمعي يا ست عايده. ارتفعت مبيعات الآيس كريم في لندن هذا الأسبوع بشكل لم يسبق له مثيل بسبب موجة الحر الشديد. أستطيع أن أعد تقريراً عن تاريخ الآيسكريم. ما رأيك؟" بدا فرحاً رغم حزن عينيه. أسرعت تقول: "عظيم. إذاً سننتظر منك تقريراً طوله من ثلاث إلى أربع دقائق لنستمع إليه في نهاية اليوم."

صار من الواضح أن سعيد صبحي، يمتلك مهارات حقيقية في تفهم أسلوب الإعداد الإذاعي الجيد، وأنه متمكن من عمله، يتعلم بسرعة ويبذل مجهوداً حقيقياً في تقديم أفضل ما عنده. أحبه الجميع ورحبوا بوجوده بينهم، وتركته يلتقط رزقه. كان يأتي من جامعته لاهثاً متعباً ليتابع العمل في إعداد البرنامج الذي تحول إلى حقيقة وصار يقدم على الهواء كل يوم جمعة. وأصبحت مهاراته في إعداد التقارير وإجراء المقابلات المسجلة وانتقاء الأغاني والموسيقى تتطور بسرعة. ساعده في ذلك ذكاؤه وثقافته الواسعة فقد كان قارئاً جيداً ومتابعاً للحياة الثقافية، يعرف كيف ينقد ويحلل ما يقرأ.

رأته يوماً يجلس في الكانتين وحده يتناول وجبة طعامه. حملت صينية طعامها وتوجهت نحوه. وقفت أمامه وهي تقول باسمة: "هل أجلس معك يا سعيد؟" قام من كرسيه وهو يقول: "طبعاً هذا يسعدني ويشرفني. تفضلي يا ست عايده." جلست وبدأت تمسح الشوكة والسكينة بالفوطة الورقية كعادتها. همهمت: "أولاً، لم وقفت لتحيتي؟ نحن لم نعتد أن يقف الرجال للنساء لأننا نتعامل على أساس المساواة ولا نتبع الرسميات. ثانياً، لم لا تكف عن مناداتي بست عايده، اسمي عايده الكل ينادونني عايده وحتى رئيس القسم العربي نناديه باسمه الأول. وثالثاً، هناك وظيفة شاغرة لمعد برامج لماذا لا تتقدم لها؟" صمت لحظة وعاد يقول بكل جدية: "علمتيني أن لا أسأل أسئلة مركبة حين أُجري مقابلة وأنت الآن طرحت ثلاثة أسئلة فبأي سؤال تريدنني أن ابدأ؟" قالت محاولة أن تصطنع الجدية: "بنفس التسلسل يا سعيد. بنفس التسلسل." أخذ نفساً عميقاً: "أولاً، وقفت تحية لك لأنك عزيزة عليَّ. ثانياً، سأحاول أن لا أناديك بست. وثالثاً، الوظيفة لم أسمع عنها."

تعالى ضحكها: "برافو. برافو سعيد صبحي. أهم موضوع هو الوظيفة التي أعلن عنها في الصحيفة الداخلية للإذاعة التي توزع على الموظفين. هناك نسخة منها على مكتبي سأعطيك إياها حين نفرغ من طعامنا. كل الشروط تنطبق عليك وإذا امتحنوك فستنجح. أنا متأكدة أنك ستنجح يا سعيد." أضاء وجهه بابتسامة: "أنت دائماً مصدر خير لي منذ أن دخلت هذا المبنى." ابتسمت وهي تقطع قطعة من الدجاج بسكينها: "الغريب أنني لم أرحب بك أبداً في البداية، اعتبرتك مفروض علي. الآن أنا فخورة بك وأعرف أنك تستحق كل الخير." تأملها لحظة: "أتذكرين أول مرة جئت فيها إلى غرفة التدريب؟" ابتسمت: "نعم. أحضرك عاطف وقدمك لنا." انحنى على المائدة الصغيرة وهمهم: "كنت تجلسين مع الشباب حول الطاولة الكبيرة، تركت لي مكانك. لم أنسى ذلك أبداً." تضاحكت: "ماذا كنت تتوقع، أن أتركك واقفاً وأنت زائر غريب أم أقول لك اذهب وابحث عن كرسي؟" أسرع يقول: "لو فعلت لما نسيت ذلك أيضاً فأهل الشام يقولون: الأسى ما بينتسى." مسحت فمها بمنديلها الورقي، وهي تغالب ابتسامة: "هل قلبك أسود لهذا الحد يا سعيد؟" أسرع يقول: "لا والله. قلبي أبيض. لكنا كبشر نذكر الناس في حياتنا إما لخير فعلوه لنا أو لأذى ألحقوه بنا." رأت حزن عينيه الذي يشع منهما. همست: "ليس دائماً يا سعيد وإلا لما قالوا، أتق شر من أحسنت إليه." رشف شايه: "صحيح، ولكنهم قالوا أيضاً، إن أنت أكرمت الكريم ملكته. أنا أردت أن أقول إني لن أنسى مساعدتك ورعايتك لي."

استرخت في كرسيها، ابعدت صينية الطعام عنها: "لم أفعل سوى واجبي وإن كنت قد ساعدتك فأنا أرد جميل من ساعدوني حين جئت قبل سنين إلى هذا المكان. وسيأتي اليوم الذي سترده أنت. سيتعلم منك الكثيرون كما تعلمت أنت." التمعت عيناه: "أتمنى أن يأتي ذلك اليوم. المحظوظ منا هو الذي تعطيه الحياة الفرصة ليتعلم ويعلم ما امتدت به الأيام." دفعت كرسيها إلى الخلف: "أسمع يا سعيد علي أن أذهب. أنتظر ضيفاً سيأتي بعد عشر دقائق لأجري معه مقابلة وأنا لا اسمح لنفسي ان أتأخر على ضيفي." قامت من جلستها. علقت حقيبتها على كتفها وهي تقول: "تعال متى شئت إلى مكتبي وإن لم تجدني ستجد الصحيفة، اسمها "إريال" فيها إعلان الوظيفة خذها وأملأ الاستمارة فأنت، صدّقني، تليق لهذه الوظيفة." همهم باسماً: "شكراً ولكن عليَّ أن أفكر جيداً فأنا سأبدأ قريباً في كتابة رسالة الماجستير." أبتسمت: "أنا واثقة أنك ستجد وسيلة للتوفيق بين العمل والدراسة. سلام."

ظل سعيد على جلسته يتابعها بنظره وهي تغادر الكانتين. كانت هذه هي المرة الأولى التي تتحدث فيها معه على انفراد وتتبسط معه في الحديث.

كانت تلك الفترة بداية متغيرات كثيرة في حياتها العملية. دعاها عاطف يوماً إلى أحد اجتماعاته. كان يجلس كعادته وراء مكتبه الكبير. لم تره يوماً يخرج من خلف مكتبه ليجلس على أحد الكراسي المحيطة به حتى في حضور كبار الضيوف. فمكتبه نوع من الاستحكام، خلفه جدار يمتد حتى النافذة، وأمامه باب الغرفة ليرى القادم ويراقب الخارج. تضاحكت وهي تجلس على الكرسي القريب من مكتبه: "خير يا عاطف؟" أخذ نفساً عميقاً: "شوفي يا ستي. أريد أن أحدثك بموضوع مهم، وأريد أن تسمعيني بهدوء." ارتسم على وجهها القلق. هذه مقدمة لحديث ذي شجون. عاد يقول: "برنامج موزايك، أريد أن تتخلي عن إعداده وتقديمه." أحست بقلبها يهوى. تسارعت أنفاسها: "لماذا يا عاطف؟ أنت تعرف حبي للبرنامج لأنه متنفس ثقافي وفني، أجمع فيه كل حكايات السينما والمسرح والموسيقى والأدب، وأنا أعده وأقدمه منذ سنوات." راح يعبث بكومة أوراق أمامه وهو يقول بصوت هادئ: "مفهوم، مفهوم يا عايده، وكلنا يعرف أنك نجحت فيه وأجدتِ." صاحت: "إذاً لماذا تريدني أن أتركه؟" ابتسم: "لأن لدي موظف أريد أن أعطيه عملاً واحتاج لبرنامج كي أكلفه به."

تسارعت ضربات قلبها. همهمت محاولة أن تكتم غضبها: "أسفة لا أستطيع أن أفهم منطقك، ما معنى أن لديك موظف بحاجة لعمل، هل عملنا هنا كالعمل في أي دائرة حكومية تقليدية نوزعه على العاملين لمجرد أننا بحاجة لأن نجد لهم عملاً؟ هل نسيت أن هناك إبداع وإجادة ومسؤولية أمام المستمع، وأن برنامجاً ثقافياً مثل موزايك يحتاج لخبرة في الإعداد والتقديم؟" اتسعت ابتسامته: "لا لم أنس يا عايده، ولكن هل نسيت أنت أن هناك شعاراً نرفعه يقول ببساطة شديدة، ليس هناك شخص لا يمكن الاستغناء أو الاستعاضة عنه بشخص آخر." بحلقت فيه غير مصدقة. هذه هي عبارته الأثيرة التي يرددها كلما أعياه إقناع أحد بجدوى أحد قراراته. همست: "هذا صحيح من الناحية الإدارية ولكن حين يدخل في الأمر موضوع الإبداع فأم كلثوم لا يمكن الاستغناء أو الاستعاضة عنها بشخص آخر." تعالت ضحكته: "ماذا، هل تقارنين نفسك بأم كلثوم"؟ نظرت إليه بغضب حقيقي. هكذا هو دائماً يتلاعب بالأمور كما يحلو له. همست: "ارجوك يا عاطف لا تسفه كلامي هكذا. أنا أضرب مثلاً فقط. أردت أن أقول إن الشخص الذي يقدم عملاً فيه إبداع وإجادة لا يمكن استبداله بسهولة. ثم من هو هذا الموظف الذي سيستولي على برنامجي؟"

انحنى بكوعيه على مكتبه الكبير نحوها: "أهدأي ولا داعي لأن أذكرك أن كل البرامج ملك للإذاعة وليست ملكاً شخصياً لأحد." تسارعت أنفاسها: "نعم، هو ملك للإذاعة لكني أصنعه لها،

أضع فيه جهدي واجتهادي وأفعل" أسرع يقول مقاطعاً: "وتتقاضين عن كل ذلك مرتباً شهرياً. وهذا يعني، حسب القانون، أن البرنامج ملك للإذاعة لأنها تشتري جهدك فلا تسميه برنامجك."

تأملته بصمت. يا لقسوته. هي لا تفكر بهذه الطريقة أبداً. فهي تعطي كل ما عندها، بل أفضل ما عندها ولا تحسب حساب ما تتقاضاه مقابل ذلك من مكافأة مالية، ولا يعنيها الوقت والجهد المطلوب لتحقيق ما تريد. كثيراً ما تعطي من وقتها بلا مقابل لتحقق معادلة صعبة. انتبهت على صوته يقول بهدوء: "عايده أرجوك تفهمي الموقف. عليَّ أن أدير شؤون الموظفين وأقسّم العمل. أعرف أنك تحبين برنامج موزايك ولكن يجب أن أكلف شخصاً آخراً بإعداده. ثم أني سأحتاج إليك في برنامج أخر مهم جداً حيكسر الدنيا."

تأملته بصمت. هو هكذا دائماً يحسن بيع افكاره وتسويقها. عاد يقول: "أول برنامج يقدم باللغة العربية يعالج قضية الثقافة الجنسية." صاحت: "ظننت اننا لا نتعامل مع ثلاث محظورات الدين والجنس والسياسة." تضاحك: "سنخرق المتعارف عليه. البرنامج سينجز بتمويل من اليونسكو وسيكون أول برنامج باللغة العربية يعالج موضوع الجنس." بحلقت فيه غير مصدقة: "ماذا؟ الجنس؟" أسرع يقول: "سيكون شيئاً جديداً وسابقة ترتبط بإسم البي بي سي وباسمك أنت." همهمت: "لماذا أنا؟ لم اخترتموني أنا؟ هذه مهمة صعبة." تأملها باسماً: "لأنك الوحيدة القادرة على إعداد وتقديم مثل هذا البرنامج." هذه لحظة صدق تتكرر كلما احتاجها لإنجاز عمل كبير، أو ليوكل لها مهمة صعبة يدرك أنها قادرة على إنجازها. فهو يعرف أنها ستنجح وسيعلو شأنه هو كمدير مبدع يقدم باستمرار كل ما هو جديد مبتكر. هكذا هو عاطف شخصية تجمع المتناقضات، هو المرح اللطيف متى شاء، والمدير الذي يدافع عن مصالحه بشراسة إذا اقتضى الأمر. يستغلها حين يحتاج إليها لتحقيق ما يريد، ويتخلى عنها أو عن أي زميل آخر إن تطلب الأمر ذلك، وبين هذا وذاك يقر بقدراتها ومهارتها في صنع البرامج الجيدة.

عاد يبتسم ابتسامته التي يظن أنها تزيل كل أسباب الزعل: "ستقومين بجولة في خمس دول عربية لتلتقي نخبة من الأطباء والأخصائيين النفسيين والاجتماعيين وطبعاً الناس العاديين من مختلف الأعمار، وتزوين عدداً من الجامعات، لتعقدي لقاءات جماعية للحديث عن أدق المشكلات الاجتماعية والصحية والنفسية المتعلقة بالجنس." همست: "ومن سيقدم ويعدّ برنامج موزايك؟" تضاحك: " دعك من موزايك." عادت تقول: "من حقي أن أعرف." همهم وهو يعبث بأوراقه: "مهدي السالم." نظرت إليه غير مصدقة: "مهدي السالم؟ مهدي السالم يا عاطف؟ هذا الرجل لم يمر عام على التحاقه بالعمل في الإذاعة، وليس لديه خبرة في إعداد البرامج."

تأملها بهدوء. عادت تقول وقد تصاعد غضبها: "لماذا مهدي السالم لماذا شخص بلا خبرة." همهم وهو يعيد ترتيب الأقلام أمامه: "عايده أرجوك لا أريد أن يسمع أحد ما يدور بيننا. مهدي السالم رجل متعلم يحمل شهادة الدكتوراه في الأدب الإنجليزي ويستطيع أن يعد ويقدم البرنامج. ثم أنا المسؤول عمن أختار ولا يحق لك التدخل في شؤون الإدارة."

قامت من جلستها. وقفت أمام مكتبه وهي تقول: "هل تريد مني شيئاً آخر؟" اتسعت ابتسامته: "ما نستغناش يا ست عايده. ستسجلين آخر حلقات البرنامج مع نهاية السنة أي بعد أربعة أسابيع، وارجو أن تطلعي مهدي السالم على تفاصيل إعداد البرنامج وتسلميه كل متعلقات البرنامج." سارت خطوات نحو الباب همس: "عايده لا تقولي لأحد شيئاً عن البرنامج الجديد حتى يصدر تعميم بالموضوع."

سارت في الممر الطويل الممتد من غرفة عاطف إلى غرفتها. جلست إلى مكتبها المواجه للجدار، تأملت صورة حنظله المعلقة أمامها. ابتسمت. هل العمل الإذاعي بحاجة لشهادة الدكتوراه في الأدب المقارن؟ وهل من العدل والإنصاف أن تحرم من برنامج تستمتع بإعداده وتقديمه ليصبح حقل تجارب بيد الدكتور الشاب؟ رجعت بظهر كرسيها المتحرك إلى الوراء واسترخت وهي تنظر إلى حنظله من جديد. تذكرت مقولة وليده الصالح الشهيرة عن حملة الشهادات العالية الذين كانوا يملؤون المكان ومعظمهم لا يصلح للعمل الإذاعي. كانت تقول: "هذا المكان نصفه دكاترة والنصف الآخر مرضى." اتسعت ابتسامتها وهي تتذكر حادثة فريدة كانت هي شاهد عيان عليها.

كانت وليده تجلس في الكانتين أيام عزه ساعة الغداء، ترتدي كعادتها بلوزة وتنورة سوداء فقد كانت تحب اللون الأسود وتظل تردد، من لبس السواد سبى العباد، مع عقد وقرط فضي مطعم بأحجار الفيروز وقد أسدلت شعرها الفاحم على كتفيها. كانت عيناها الكحيلتان تنتقلان بين الوجوه وهي تتحدث عن فيلم شاهدته مؤخراً خلال مواكبتها لمهرجان لندن السينمائي الذي كانت تحضره كل عام وتتحدث عنه في برنامجها الشهير "نصف ساعة" وكان الزملاء والزميلات حولها يستمعون باهتمام لحديثها عن فيلم لمخرجها الياباني المفضل أكيرا كيروساوا حين جاء الدكتور نواف يحمل كتاباً وضعه على مائدة الطعام وسحب كرسياً وجلس. نظرت وليده إلى الكتاب وقالت ضاحكة: "أتقرأ الأرض اليباب لتي إس أليوت. قال الزميل الدكتور بتعال ثقافي واضح: "تعرفين يا عزيزتي هو للنخبة وفهم قصائده يستعصي على الكثيرين. قلة قليلة من الناس تستطيع أن تفهم أليوت وخاصة الأرض اليباب. أحاول أن أترجم هذه القصيدة المعقدة."

ابتسمت وليده وهي تقلب صفحات الكتاب: "فعلاً لأنه يبحث عن حلقة وصل بين المعاصرة والكلاسيكية." تضاحك الدكتور نواف وهو ينظر إليها بطرف عينيه: "ماذا هل قرأت أليوت؟ كنت أظن أنك تهتمين فقط بمتابعة آخر الأفلام وأحدث الروايات. لم أتصور أنك تقرأين الشعر."

رمقته وليده بنظرة جعلت عينيه تدوران في محجريهما وترمشان بسرعة. جاء صوتها هادئاً رائقاً: "أنا يا دكتور أعرف أستاذ تي أس أليوت وابن بلده الشاعر الأمريكي عزرا باوند. كان يزورني كثيراً أيام كنت أعيش في روما. وحكى لي الكثير عن صداقته مع توماس ستيرنز أليوت." أحمرَّ وجه الدكتور نواف وقال محاولاً الخروج من المأزق الذي وجد نفسه فيه: "عزيزتي وليده كم هو رائع أن تعرفي استاذ أليوت بشكل شخصي." أزاحت وليده خصلات شعرها، نفثت دخان سيجارتها وهي تقول: "نعم أعرف الرجل الذي اكتشف وساعد في تشكيل أعمال العديد من معاصريه، ليس فقط اليوت وإنما جيمس جويس، روبرت فروست وإرنيست همنغواي." سادت حالة من الصمت والترقب بين الجالسين حول المائدة. أشعلت وليده سيجارة جديدة وهي تقول: كان ذلك في الخمسينيات حين عاد إلى إيطاليا بعد سنين من العذاب في الولايات المتحدة، وأصبحنا أصدقاء. كان حين يزورني يختار أن يجلس على الطاولة الصغيرة في مطبخي ويكتب."

صاح أحد الزملاء الجالسين حول المائدة: "عزرا باوند هذا يهودي. اسمه يظهر أنه يهودي." تضاحكت وليده: "لا يا عزيزي. عزرا باوند كان متعاطفاً مع الأفكار الفاشستية أيام الحرب حتى أنهم عقدوا محكمة له في واشنطن بعد أن اعتقلته القوات الأمريكية عند انتهاء الحرب، بسبب تأييده لهتلر وموسوليني خلال سنين الحرب. ثم أعفوه من الإدانة بدعوى الخلل العقلي." بدا الاستغراب على وجه الزميل. التفتت وليده إلى الدكتور وهي تقول: "عزرا باوند يا دكتور ساعد أليوت كثيراً في إعداد قصيدة الأرض اليباب لذلك أهداها أليوت له. وقد قرأت القصيدة معه وشرح لي الكثير من غوامضها." قامت من جلستها وهي تقول: "اعذروني. عندي أستوديو." التفتت إلى الدكتور نواف وهي تقول: "بالمناسبة يا دكتور النخبة هي التي تحسن تذوق الأفلام الجيدة." سارت مبتعدة والكل يرقب الموقف بصمت، وقد انكمش الدكتور في مقعده وراح يقلب الصفحات في كتبه.

همهمت عايده لحنظله من جديد: "شايف كيف يعيد التاريخ نفسه. بس أنا لا أملك مفاتيح وليده ولن أدخل في نقاشات بلا جدوى." ليفعل الدكتور المتحذلق ما يحلو له، وستجد هي متعة جديدة في إعداد برنامج يتناول موضوعاً لم يتطرق إليه أحد في الإعلام العربي من قبل.

مع قرب نهاية العام سجلت آخر حلقات برنامجها موزايك، حلقة خاصة عن وليام شكسبير. زارت مسقط رأسه مدينة ستراتفورد على نهر إفون، وقابلت مجموعة من المتخصصين في المسرح الشكسبيري والباحثين في حياته وسوناتاته الشهيرة، واستعانت بعدد من الزملاء لقراءة نصوص الباحثين بالعربية. طلبت من سعيد أن يقرأ لها بعض المقاطع. وضع سعيد السماعات على أذنيه، أسند كوعيه إلى الطاولة ممسكاً الأوراق بين يديه. نظر إلى عايده التي كانت تجلس على الكرسي المقابل له داخل الاستوديو. همست: "جاهز؟" هز رأسه بالإيجاب. عادت تقول: "سأترك الموسيقى تحت صوتك، معنى ذلك أنك إذا ترددت أو أخطأت سنعود للبداية من جديد." ابتسم: "اطمئني أنا جاهز." رفعت عايده يدها لمهندس الصوت، الذي يفصلها عنه جدار زجاجي، إيذاناً بالاستعداد. ثم هبطت بها إلى أسفل. أضاء الضوء الأخضر داخل الأستوديو وبدأت الموسيقى، قطعة موسيقية للموسيقار هنري بيرسيل، شكل من أشكال موسيقى الباروك الإنكليزية في القرن السابع عشر. أنخفض صوت الموسيقى تدريجياً وبدأ سعيد يقرأ مقطعاً عن تاريخ مدينة ستراتفورد على نهر إيفون. انتهى تسجيل البرنامج. حملت أشرطتها وأسطواناتها الموسيقية واستعدت لمغادرة الأستوديو. كانت تشعر بصداع خفيف. همست: "أحتاج لفنجان قهوة." ابتسم سعيد: "إذاً اسمحي لي أن أدعوك."

جلسا في الكانتين يحتسيان قهوتهما. قالت باسمة: "شكراً لمساعدتك. الحلقة معقدة وأحتاج لأصوات كثيرة، وقد استعنت بعدد كبير من الزملاء. أردتها حلقة متميزة أودع بها برنامجي." همهم سعيد: "يسعدني أن أكون بين من شاركوا فيها." ابتسمت وهي ترشف قهوتها: "كيف وجدت الوظيفة الجديدة؟" أنحنى على المائدة الصغيرة باتجاهها: "العمل في قسم البرامج الإخبارية بعيد بعض الشيء عن اهتماماتي الحقيقية فأنا كما تعلمين أحب أن أعمل في البرامج الثقافية والموسيقية. اليوم حين عملت معك في برنامجك أحسست أني أعود لجذوري. البحث في الفن والأدب شئ ممتع." تضاحكت: "كنت رائعاً في برنامج الشباب. عليك أن تطالب بالعودة للبرامج. أظن أن عاطف سيرحب بك. ما رأيك في ما سجلناه؟" التمعت عيناه بذاك البريق الغريب: "أعجبني التوازن في آراء الباحثين عن هذا الرجل الذي تكتب عنه كل يوم عشرات المقالات، وأعجبتني موسيقى عصر شكسبير التي استعملتها، ووصفك لمدينة ستراتفورد وأنت تتجولين في شوارعها."

رشف قهوته بهدوء: "أنا لي رؤية خاصة لشكسبير." أسرعت عايده تقول: "ماذا هل ترفضه كما فعل بعض مشاهير الكتاب والأدباء أمثال برنارد شو، أم تؤمن أنه لم يكن موجوداً؟" تضاحك: "لا، لا هذا ولا ذاك، أراه من منظور مختلف. أراه من منظور القهر السياسي. فأنا اعتقد أنه

كان يخاف كثيراً سلطة اليزابيث الأولى. يخاف أن ينتهي به الأمر سجيناً في قلعة لندن كما حدث للشاعر والتر رالي. لذلك تجنب إغضابها وجعل أحداث كل مسرحياته المهمة تجري في أماكن بعيدة عن إنكلترة، واسترضاها بكتابة مسرحيات تمجد أجدادها من الملوك الذين تسمّوا باسم هنري وصورهم على أنهم أبطال شجعان صناديد ليكسب رضاها. ولم يفته أن يكتب مسرحيات عمن عارضوهم، فجعل ريتشارد الثالث مشوهاً بحدبة في ظهره، لأن شكسبير كان يدرك أنه يعيش في زمن تحكمت فيه بأمور الناس ملكة حاربت أعداءها وقضت على الأرمادا الإسبانية، وتخلصت من كل من وقف في طريقها."

تأملته عايده بصمت وهي ترشف قهوتها ببطء. عاد يقول: "أليس غريباً أن كل أبطال تراجيدياته العظيمة ليسوا من أبناء بلده ولا يعيشون حتى في انكلتره؟ هاملت أمير في الدانمارك، وعطيل المغربي حاكم في قبرص، والملك لير ملك لمملكة لا نعرف أين تكون، وماكبث اسكتلندي أي من بلد عدوتها اللدودة ماري ملكة الاسكتلنديين التي حكمت عليها بالإعدام. هل كل هذه صدف أم مهارة مبدع يخشى البطش؟" تعالى ضحك عايده: "ما هذا يا سعيد صبحي؟ أين كنت تخبئ كل هذا؟ برافو عليك. والله تحليل رائع مقنع ولكنه يحتاج لبراهين تثبت صحة ما تقول. كان يجب أن تدرس الأدب بدلاً من الإعلام." أسرع يقول: "تورطت في دراسة وسائل الاتصال. قلت إنها أكثر معاصرة لزماننا من الخوض في الدراسات الأدبية. أردت أن أدرس بعض الجوانب التي تساعدني على تطوير أدائي العملي في هذا المجال. على أي حال انتهى الموضوع وقبلت أطروحتي الأسبوع الماضي." همهمت عايده: "ألف مبروك وأتمنى لك التوفيق وأنا واثقة أنك ستنجح في عملك." أحنى رأسه بحركة مسرحية: "شكراً لثقتكم الغالية." تضاحكت عايده. عاد يقول: "بصراحة لا أفهم لم سيعطون برنامجك لمهدي السالم هل يستطيع أن يحافظ على بريق برنامج كهذا؟"

صاحت عايده: "سعيد صبحي لا تجرني للحديث في ما لا أريد الخوض فيه. الرجل يحمل شهادة الدكتوراه في الأدب الإنجليزي ولا شك أنه قادر على اختيار الموضوعات الأدبية التي تناسب البرنامج." همهم سعيد: "هذه هي الدبلوماسية بعينها." أسرعت عايده تقول: "هذه ليست دبلوماسية بل شكل من أشكال شرف المهنة. فأنا أعتقد أنه لا يجوز أن تجرِّح بعمل زملائك. إن كان لديك نقد بناء فقله وإن كان لديك مديح فلا تبخل به لأن خير المديح ما يأتيك من زميل مهنة. وعلى أية حال الحكم الأخير سيأتي من المستمعين. ثم لا تطول لسانك على أصحاب الشهادات العليا لأنك أصبحت منهم وحصلت على شهادتك." أسرع يقول وهو يغالب ضحكة: "صحيح ولكنني دخلت العمل الإذاعي قبل أن أحصل على شهادتي هل نسيتي." مال على

الطاولة وهو يقول وقد التمعت عيناه بذلك البريق العجيب: "قولي لي بالله عليك لماذا اختاروه لتقديم برنامجك؟" ضيقت عايده عينيها وهمهمت: "سعيد صبحي لا تسأل أسئلة محرجة." أسرع يقول: "إنها أمتع الأسئلة على الإطلاق وأنت خير من يعرف ذلك. هي كالنكتة إن لم يكن فيها شئ من الإحراج لما ضحكنا فأفضل النكات هي التي تمس المحظورات." أفلتت منها ضحكة: "لم أكن أعرف أنك فيلسوف هكذا." همهم ضاحكاً: "تلميذك يا ست عايده." صاحت به: "أوه، كف عن ذلك. يجب أن نتعلم من شخص ما أو حدث ما. أنا مثلاً اليوم تعلمت منك شيئاً جديداً عن شكسبير أشكرك عليه." بدا كطفل صغير. همهم: "شكراً عايده."

صمت لحظة وعاد يقول ضاحكاً: "وماذا عن هذا البرنامج الجديد الجرئ الذين ستقومين بإعداده؟ قرأت عنه في النشرة الداخلية." تضاحكت عايده: "علي أن أجمع مادته العلمية والاجتماعية من خمس دول وأضعها في عشرين حلقة تبحث مشاكل الجنس الصحية والنفسية والاجتماعية." هز سعيد رأسه: "عمل جبار ولكنك قدها وقدود كما يقولون يا عايده." نظرت في عينيه، رأت كم الحزن فيهما. همست: "لا أريد أن أفكر في العمل الآن. منذ الغد أنا في إجازة وسأمضي ليلة رأس السنة مع مجموعة من الأصدقاء وأنسى العمل وهمومه." كان يجلس صامتاً مبتسماً. عادت تقول: "وأنت كيف ستقضي ليلة رأس السنة؟" تضاحك: "أظن أنني مدعو لحفل عشاء مع صديق." همهمت: "كل عام وأنت بخير يا سعيد."

"أهلاً وسهلاً. يا ويلكوم، يا ويلكوم." التحية المألوفة من عبد المحسن حين يفتح باب البيت مرحباً بالضيوف، محولاً الكلمة الإنجليزية welcome إلى تحية عربية يلفظها وكأنه يقول يا ويلكم، فيتضاحك منه الجميع. صافحها وقبّل وجنتيها وعاد يقول بصوته الجهوري الرنان: "لك شو هيدا، مجوِهره، والله مجوِهره يا عايده يخزي العين عليكي." أمسك بيدها وأدارها حول نفسها في حركة راقصة: "شو ها الفستان الحلو الشيك. قمر يا عايده." هكذا هو دائماً، يقول لها أحلى الكلام ويعنيه من قلبه، وتشعر في بيته بالأمان والفرحة. جاءت نوال مسرعة في الممر الطويل الذي يوصل بين غرف البيت الواسعة وباب الدخول: "أهلا عايده، أهلا حبيبتي، كل سنة وأنت سالمة يا رب. كيفيك؟" قبلتها على الطريقة اللبنانية ثلاث قبلات وهي تقول بين قبلة وأخرى: "فستانك حلو كتير لابقلك يا مضروبة." تضاحكت عايده وهي تدور حول نفسها تستعرض فستانها الحريري الأسود الذي يضيق عند الخصر ويتسع ذيله فوق الركبة وتزين صدره ياقة من الأورغنزا البيضاء تدور حول فتحة الصدر الواسعة بأناقة وتناسق. لذلك اختارت أن تعقص شعرها الأسود في أعلى رأسها، مما أظهر جمال عينيها الواسعتين الكحيلتين وأهدابها الطويلة، وتحلّت بقرط من اللؤلؤ يتدلى على رقبتها. همست نوال وهي تسحبها من يدها إلى غرفة الصالون: "قمر، قمر يا ملعونة. تعالي نتسامر شوي قبل ما يجي الضيوف."

كانت غرفة الصالون الواسعة تضم عدداً من الأرائك المريحة الوثيرة وتزدان جدرانها بلوحات زيتية، جمعها عبد المحسن، أو عبود كما يناديه الجميع، من مزادات لندن يقتنيها ويعلقها على جدران البيت كنوع من الاستثمار. جلسوا في الزاوية القريبة من الباب حيث أضيفت بعض الكراسي لتستوعب عدد الضيوف الكبير المتوقع. صاح عبد المحسن ضاحكاً: "أتصل بي شاعرك المفضل الذي كنت قد دعوته لحضور حفلنا هذا المساء، وقال إنه سيجلب معه ضيفاً، فقلت له أهلاً بك وبضيفك." همهمت نوال: "إن شاء الله يكون دمه خفيف، ما بدنا مشاكل ليلة راس السنة." صاح عبود: "خلص ما في مشكلة أهلاً بالجميع." ابتسمت عايده: "جميل أن نلتقي به الليلة، وإحنا وحظنا مع الضيف الذي سيحضره معه."

بدأ الحضور يتوافدون، أهل صحافة وفكر وأدب ورجال أعمال وسيدات أنيقات معظمهن مثل نوال لا يعملن ويكتفين بلقب ربة بيت. تعالت الأصوات والضحكات ودارت الأحاديث وكؤوس النبيذ والشراب التي كان عبود حريصاً على ملئها كلما فرغت، ودارت الأحاديث والنكات. رن جرس الباب ودخل الشاعر المفضل، شاعر النساء والغزل. حيا وسلّم، وسط ترحيب الجمع، ثم قدّم ضيفه: "سعيد صبحي، ابن صديق عزيز، وصحفي يعمل في الإذاعة في لندن وقد حصل مؤخراً على شهادة الماجستير في وسائل الاتصال." تأملته عايده باسمة ببدلته الكحلية الأنيقة،

وهو يدور بعينيه السوداويين في أرجاء الصالون ويهزّ رأسه محيياً. حين رآها تجمدت ابتسامته قليلاً. أحنت له عايده رأسها مرحبة وهمهمت: "أهلاً سعيد." كانت المرة الاولى التي تراه بالبدلة ورباط العنق. بدا أنيقاً وسيماً.

عاد الجمع إلى أحاديثهم وصخبهم. جلس سعيد على أحد الكراسي التي أضيفت لأثاث الصالون قرب الباب. وضع عبد المحسن في يده كأساً من النبيذ الأحمر وهو يرحب به. بدأ سعيد يحتسي شرابه بهدوء واستمتاع. كانت عايده منشغلة في حديث في الزاوية المقابلة له من الصالون الواسع، وتشاغل هو بالحديث مع أحد الضيوف. وحين صار الكرسي القريب منه شاغراً، قامت عايده من مجلسها وجلست بجانبه وهي تقول: "مفاجأة جميلة. لم أكن أعرف أنك صديق شاعرنا." تضاحك: "لا أنا إبن صديقه، هو ووالدي أصدقاء من أيام الشباب لذلك يحب أن يدللني كلما سنحت له الفرصة لذلك." تضاحكت عايده: "يعني أنت الآن مدلل يا سعيد؟" أسرع يقول: "أوه جداً جداً. أجلس بين هذا الجمع الجميل في هذه الدار العامرة، أشرب نبيذاً لذيذاً، وأتحدث معك وأنت في أجمل حلة كأنك أميرة خرجت من حلم جميل." رشف من كأسه وكأنه يحتمي به. تضاحكت عايده: "شكراً على هذا الإطراء. أنت أيضاً تبدو في غاية الأناقة." نظر إليها بعينيه السوداوين الواسعتين وهمهم: "لم يكن ذلك إطراءاً. هذه هي الحقيقة. أنت الأجمل بين كل السيدات الحاضرات بأناقتك وبهائك." همست وهي تدور بعينيها في الغرفة: "سعيد صبحي هل تغازلني بتأثير كأس النبيذ هذا؟" أسرع يقول وهو يتأمل السائل الاحمر في كأسه: "لا تجعلي له فضلاً علي لم أشرب منه سوى رشفات قليلة."

فجأة وجدت شاعرها المفضل يقف أمامهما وهو يقول بابتسامة واسعة: "عايده، حدثني سعيد كثيراً عنك وعن مساعدتك له، وقلت له أنت خير ناصح وأستاذ خاصة الآن بعد أن حصّل على الوظيفة وصار لديه فرصة لإثبات الذات." نهضت من جلستها وهي تقول بابتسامة واسعة: سعيد ليس بحاجة لأحد. لقد أثبت جدارته والكل يقدرونه ويحترمونه، ثم لا تنسى المثل العراقي الذي يقول، تلميذ الاستاذ استاذ ونص." تضاحك الشاعر: "جميل جميل يا عايده." همست عايده: "هو الآن يساعدني في أمور كثيرة. سعيد سيكون خلال فترة قصيرة من نجوم بوش هاوس، أنا واثقة من ذلك." امسك يدها بين يديه وطبع عليها قبلة.

عادت عايده تجلس في مكانها قرب سعيد. همس سعيد: "أشكرك لقد قلت فيّ أكثر مما أستحق." همهمت: "قلت ما أؤمن به." انتبهت على صوت نوال تقف قرب باب الصالون: "عايده أحتاج للمستك الجميلة في إعداد المائدة." قامت عايده من جلستها. اقتربت نوال من

سعيد وهي تقول: "آسفة لكني احتاج لعايده سأعيدها لك سريعاً." قام سعيد من جلسته وهو يقول ضاحكاً: "هل تريدين مساعدتي أيضاً؟" همهمت نوال ضاحكة: "الله مين قدي معي اثنين من نجوم البي بي سي." ساروا في الممر الطويل نحو المطبخ الواسع الكبير المرتبط بغرفة الطعام. بدأت عايده تعيد ترتيب الاطباق والملاعق والشوك والفوط الورقية، وانهمكت نوال في سكب الطعام في أطباق التقديم الكبيرة ومعها ماريا التي تأتي لمساعدتها في مثل هذه الأماسي. وقف سعيد قرب باب المطبخ وقد أسند ذراعاً على الباب وأمسك كأسه بالأخرى. صاحت نوال: "اليوم عملت "حراق إصبعو"[2] أرجو أن ترضى عنها." همهم سعيد: "أكيد تسلم إيدك مقدماً." تضاحكت نوال: "دخلك صحيح اسم حرّاق أصبعو جاء من فكرة أن الأكله لذيذة جداً بحيث أنك تأكلها بمجرد انتهاء طبخها وتكون ساخنة فتحرق اصبعك." تضاحك سعيد: "تمام هي أكلة تؤكل ساخنة." صمت لحظة وعاد يقول: "أنا أحبها جداً وأسميها حراق أصابيعو لأنها لا تحرق إصبعاً واحداً فقط." تعالى ضحك عايده ونوال.

كان سعيد يقف مستنداً بأحد ذراعيه على باب المطبخ وقد سد بقامته طريق الدخول. فجأة أحس بشخص ينحني ويدخل من تحت ذراعه المستندة على الباب وهو يقول مستنكراً: "شو هالطول. مين الشب؟" أجابت نوال وهي مازالت تضحك: "أهلاً دكتور سالم. هذا سعيد صبحي صديق عزيز وزميل عايده في العمل. سعيد، الدكتور سالم أبو الفضل، أستاذ الفلسفة." تبادل الرجلان الابتسام والتحية بإحناء الرؤوس. همهم أبو الفضل: "آسف كثير سوري يا نوال تأخرت كان عندي ضيف وتخلصت منه بمشقة." همهمت نوال كلمات الترحيب. سار الدكتور سالم أبو الفضل ببدلته السوداء وبابيونه الكبير نحو عايده وهو يقول بصوته الخشن: "ما هذا الجمال؟ كل يوم تزدادين جمالاً." ابتسمت عايده مجاملة وابتعدت إلى الركن الآخر من المائدة وتشاغلت بترتيب الصحون. دار أبو الفضل حول المائدة الكبيرة، اقترب منها أمسك بيدها وراح يهزها مصافحاً وهو يقول: "مو معقول يا عايده جمالك فاق الحدود." ظلت عايده على صمتها تبحلق فيه وجسمها يهتز من مصافحته الرتيبة. قرب أبو الفضل وجهه منها وهو يقول ضاحكاً: "صحيح الثقل صنعة، بس والله بيلبقلك. بس إحنا ناس عندنا صبر كثير وبنتحمل الثقلانين." سحبت عايده يدها من قبضته وهمهمت وهي تستجير بنوال: "وين ملاعق السكب؟"

تجمدت نوال في مكانها وهي ترقب الموقف الذي يوشك أن ينفجر. تحرك سعيد من مكانه ببطء، ووقف قرب الدكتور سالم، انحنى نحوه وهمس: "صحيح الصبر طيب، وكلنا لازم نصبر

[2] حراق اصبعو، أكلة شامية من العجين والعدس والتوابل.

ونتحمل يا دكتور." بحلق الدكتور سالم أبو الفضل مشدوهاً بسعيد وراح يصلح من وضع البابيون حول رقبته. مد سعيد ذراعه لعايده بحركة مسرحية وهو يقول بصوته الرائق: "دعك من ملاعق السكب واسمحي لي يا سيدة المايكرفون أن أخرجك من المطبخ وأعود بك إلى عالمك البهي الجميل الذي يليق بك." لفت عايده ذراعها حول ذراع سعيد المطوية، وسارت معه خطوات. فجأة توقف سعيد عند باب المطبخ وهو يقول دون أن يلتفت خلفه: " حراق إصبعو أكلة ثقيلة، ثقيلة جداً يا نوال وما بتنهضم بالمرة."

سار سعيد بعايده في الممر الطويل باتجاه غرفة الصالون. سحبت ذراعها من ذراعه وهي تقول ضاحكة: "شكراً أنقذتني. لا أدري لماذا يصر عبود على دعوة هذا الرجل. يا إلاهي ما أثقل دمه. في كل مرة ألتقي به أجد نفسي في موقف محرج. أشكرك." انحنى نحوها وهمس: "أنا دائماً في خدمة السيدة الجميلة." همهت: "ها أنت ترد لي الجميل. أشكرك يا سعيد كنت سأصفعه على وجهه." دخلا الصالون الكبير ودارت الكؤوس والأحاديث من جديد. تجنب سالم أبو الفضل الاقتراب من عايده طوال السهرة. اندمج سعيد مع الضيوف، حدّث هذا وناقش ذاك، ليعود بعدها يتابع عايده بنظراته. داعبته نوال كثيراً وأفرطت في ملء طبقه بالطعام تارة بحجة أنه عازب وأخرى لأنه زميل عايده في البي بي سي.

بعد العشاء حملت نوال قدح القهوة وحشرت نفسها قرب عايده في الكرسي الكبير ذي المسندين. رشفت قهوتها وهمهمت: "صديقك لطيف جداً." همهمت عايده: "قصدك زميلي." ابتسمت نوال: "زي ما بدك. شو رأيك فيه؟" ابتسمت عايده: "شاب ممتاز أثبت جدارة في العمل، محترم، مؤدب، مثقف ومتعلم." أسرعت نوال تقول: "وخفيف الدم. شفتي شو عمل بأبو الفضل؟ خلاه يسكت وما يقرب منك. وأهم شيء، حلو زي القمر المضروب." نظرت إليها عايده: "أيوه وشو كمان يا ست نوال؟" تضاحكت نوال: "وواضح أنه معجب بك كثير." همست عايده محاذرة أن يسمعها أحد: "أحياناً يكون دمك ثقيلاً إلى درجة لا تصدق." استرخت نوال في جلستها تنهدت بعمق وهمست وهي تغالب ضحكة: "انظري كيف يلاحقك بعينيه. الرجل معجب بك. يكاد يلتهمك بعينيه. يا ويلي على اللي عمله بسالم أبو الفضل كان حياكله أكل لأنه تحرش بك. ولما دقت الساعة معلنة بداية العام الجديد، شفته كيف باس خدك." تأملتها عايده بشيء من السخرية: "لا يا شيخة. وشو كمان؟ كل الناس باست بعضها. بيكفي يا نوال، سعيد صبحي ولد، أصغر مني بعشر سنين."

رشفت نوال قهوتها ببطء وهمهمت: "طز وشو يعني. هو شب وإنتي صبية. وبعدين بعدك حلوة وتبدين أصغر من عمرك بكثير ولا أحد يصدق أنك مثلي في منتصف الأربعين." سكتت لحظة وعادت تقول وهي تسترق النظر إلى سعيد: "أنا أقول أحبيه. تخيلي كم سيسعدك وجود إنسان مثله يحبك. أصغر منك وشو يعني؟ الرجال يفعلون ذلك طوال الوقت لم لا نفعله نحن أيضاً." تضاحكت عايده: "وتخيلي كم سيتعسني غيابه من حياتي بعد أن أتعلق به وأحبه." صاحت نوال: " لم تفترضين حدوث ذلك؟" ابتسمت عايده: "لأني إنسانة منطقية، كيف يمكن لشاب في منتصف ثلاثينيات عمره أن يحب امرأة مثلي. ثم لا تنسي أنني تعلمت الكثير من تجاربي السابقة، تجارب الحب الفاشلة التي عشتها." همهمت نوال بالإنكليزية: "أن تحب وتفشل خير من أن لا تحب على الإطلاق." تضاحكت عايده: "واو تستشهدين بالشعر؟ ألفريد لورد تينيسون شاعر البلاط في عصر الملكة فكتوريا." هزت نوال كتفيها: "ليش لا قرأت عنه مقالاً جميلاً في الصحف قبل فترة وعلقت الكلمات في ذهني، أن تحب وتفشل خير من أن لا تحب."

استرقت نوال نظرة نحو سعيد، كان يتابع عايده بعينيه الكبيرتين. همهمت نوال: "ليكي كيف عم بتطلع فيكي. لك عايده ألا تغاري عليه من البنات أكيد بيحبوه لأنه حلو وظريف كثير." لكزتها عايده في خصرها بقوة: "شو أغار عليه إنتي مجنونة؟ قلت لك هو مجرد صديق وزميل أستمتع بصحبته." كان سعيد يمازح عبود وضيف آخر. همست نوال: "على كل حال أنت حرة بس والله خسارة، والله بينحط بالقلب. سعيد بيحبك يا عايده والله بيحبك، حرام أن تضيعي حبه." لكزتها عايدة في خصرها: "حاولي أن تفهمي. كيف أحب رجلاً يصغرني بعشرة أعوام؟ ماذا ستقول أمه مثلاً حين تراني، أمه التي أراهنك أنها تكبرني ببضع سنوات. ستنظر إلى إبنها الوسيم الذكي اللي زي القمر كما تقولين، وتقول بلهجتها الشامية، لك يامو هاي عروستك قدي ولك ابني." تعالى ضحك نوال من تقليد عايده للهجة الشامية: "يعليكي يا عايده." ابتسمت عايده. كان سعيد يهمس لعبود بكلمات. تعالى ضحك عبود وصاح بصوته الجهوري: "هذه أحلى نكتة سمعتها من مدة طويلة يا سعيد."

نقلت وليده السباغيتي الساخنة من المصفاة النحاسية إلى طبق التقديم. همهمت باسمة: "هكذا إذاً. عاطف أعطى برنامجك لشخص آخر، وأنت بدأت تسجيل حلقات برنامج عن الثقافة الجنسية." تضاحكت عايده: "أتعرفين أجد حرجاً شديداً في التعامل مع كلمات لم نعتد التعامل معها، الواقي الذكري وختان الإناث والعجز الجنسي والمثلية الجنسية التي تعتبر تعبيراً مبتكراً وجديداً بعد أن ساد استعمال عبارة الشذوذ الجنسي." تضاحكت وليده: "فعلاً لكنني أقول برافو عايده هذا هو التحدي الحقيقي." همست عايده: "كان علي أن أواجه الكثير من الصعاب. تصوري إحدى مقدمات البرامج التلفزيونية في مصر دعتني لإجراء حوار في برنامجها. قبل الحوار رجتني أن لا أذكر كلمة جنس." تضاحكت وليده: "معقول البرنامج اسمه عن الجنس بصراحة." همست عايده: "جلست لحظات أفكر، وحين بدأ تصوير البرنامج، تحدثت عن أهمية التكاثر في حياة البشر ومشاكل هذا التكاثر الصحية والنفسية والاجتماعية، ونجحت فعلاً في الحديث عن الجنس دون أن أذكر كلمة جنس." تعالت ضحكة وليده وهي تحمل الطبق إلى المائدة الصغيرة قرب النافذة: "أي أنك تحديت نفسك وشحذت كل قدراتك يا عايده. أنا واثقة أنك ستقدمين برنامجاً سيكون بصمة في تاريخ العمل الإذاعي."

جلستا حول المائدة الصغيرة في المطبخ بدأت وليدة كعادتها تسكب الطعام في طبق عايده: "تذوقي السباغيتي على أصوله بخلطة الأعشاب الإيطالية الأصلية وزيت الزيتون النقي وجبنة البارميجانو." أمسكت عايده بالشوكة والملعقة ولفت السباغيتي على الشوكة بعد أن أسندتها إلى وسط الملعقة، تذوقت أول لقمة. أغمضت عينيها وهمهمت: "أمم، تسلم إيدك يا وليده، فعلاً لذيذ." أسرعت وليده تقول: "هذه وصفة تعلمتها من صديقة إيطالية، السباغيتي مصنوع بالبيت، أي أنه طازج، وبدون اللحمة أو إضافات أُخرى." وضعت أمام عايده طبق السلطة الخضراء وسكبت بعض النبيذ الاحمر في قدحها: "الآن إحكي لي، إلى متى سيستمر صراعك مع عاطف؟" همهمت عايده: "هو ليس صراعاً مع عاطف، هو صراع مع وضع جديد ومفاهيم جديدة ونظرة تجارية بحتة للعمل الإبداعي. الجميع يتحدث عن النفقات والاقتصاد." صاحت وليده: "الله يرحم أيام زمان. كنت أقول لمديري إني لا أستطيع أن أنفذ ما طلبه مني ما لم يوفر لي كذا وكذا، فيوافق على طلباتي لأنه كان مديراً قوياً واثقاً من نفسه يعرف كيف يقنع رؤسائه ويرضي مرؤوسيه. الآن نحن نعيش عصر رجال حاضر يا سيدي، رجال خائفون على مناصبهم ويسيرون العمل بأقل الخسائر الممكنة لهذه المناصب."

تأملتها عايده بجلابيتها السوداء المطرزة بخيوط ذهبية. هذه ملكة ومملكتها من صنعها وحدها لا تحتاج لمناصب وكراسي. همست: "الحق يقال يا وليده بدأت أتعب. كل يوم أواجه مشكلة

تحيرني أو أسمع شيئاً لا اقتنع به وأحياناً لا أفهمه. انتهى زمانك، زمن الخير." تضاحكت وليده وهي تزيح خصلة شعر عن جبينها: "هذا ما قاله سقراط لصديقه شاكياً له تقلب الزمان قبل أكثر من ألفي سنة. فلا ترددي شكوى الإنسان الأزلية." أسرعت عايده تقول: "لا أريد أن أردد شكوى الإنسان الأزلية. لكني أرفض أن أتحول إلى آلة يحركونها كيفما شاؤا. أريد أن أُبقي التحدي الإبداعي حياً في داخلي، لا أريده أن يختنق ويموت. انظري إلى هذه الوجبة اللذيذة التي أعددتها أنت بحب وتأنٍ. هل يمكن أن تقارن بالطعام الجاهز الذي يأتي في علبة معدنية؟"

بدأت وليده تضحك ويعلو ضحكها. صمتت عايده. راحت تنظر إليها بدهشة: "ما الذي يضحكك هكذا؟" همهمت وليده وهي ما تزال تغالب ضحكها: "حبيبتي عايده، اعذريني لكنك الآن صورة مصغرة مني." همست عايده: "وهل في هذا مدعاة للضحك؟" تأملتها وليده لحظة وقالت بحنان: "نعم. لأني أشعر حين أستمع إليك وكأنني أرقب نفسي قبل سنين. يا عايده، العيب ليس فيما تغير من حولنا بقدر ما هو فينا، أنا وأنت وكل أمثالنا، لأننا نحمل في دواخلنا مصفاة بثقوب صغيرة جداً لا تسمح بمرور الشوائب، فنظل نرفض ونحلل ونناطح الجدران." هزت عايده رأسها: "لا، لا يا وليده، العيب ليس فينا. نحن على صواب وهذه المصفاة التي تتحدثين عنها ضرورية، بل هي أساس الإبداع والعمل الجيد. لا العيب ليس فينا بل فيهم هم، في عاطف وأمثاله ومن يرضخون له بحجة مواكبة متغيرات العصر. نحن على أعتاب قرن جديد سيجلب الكثير من المتغيرات التي قد نقف عاجزين عن مواكبتها."

ابتسمت وليده ووضعت المزيد من الطعام في طبق عايده وهي تقول: "كلي، لعل الطعام يهدئ أعصابك." ابتسمت عايده. رشفت من كأسها وهمست: "اعطيني مزيداً من جبن البارميزان، بارميجانو كما يقول الإيطاليون." تأملتها وليده بحنان: "لا تعذبي نفسك هكذا، حاولي أن تجدي نقطة توازن بين ما تريدين وما هو متاح فعلا." صاحت عايده: "يا سلام. ولم لم تحاولي أنت أن تجدي نقطة التوازن هذه؟ لم كنت تصارعين مثلي وأكثر؟" أسرعت وليده تقول: "لأني عشت زمناً غير زمنك يا عايده. الفرق بين ما عشته أنا وما هو موجود اليوم هائل جدا. لا تنسي أنني أكبر منك بحوالي عشرين سنة. في صباي كانت الدنيا غير الدنيا. تعرفين حين كنا نذهب إلى السينما في البصرة أيام زمان، كنا نرتدي ملابس السهرة، أي والله السواريه، ونشتري علبة شوكولاته فاخرة ثم نجلس في اللوج. تعرفين ما هو اللوج؟ المقصورة، لأن قاعات السينما كانت فخمة، جدرانها مغطاة بالمخمل الأحمر وفيها مقصورات مزينة بالنقوش الذهبية. وحين ينتهي العرض لا يفكر أحد في حمل ما تبقى في علبة الشوكولاته معه، نتركها لعمال السينما ليستمتعوا بها. أين كل ذلك مما نحن فيه اليوم، دور السينما تشبه علبة السردين."

تعالى ضحك عايده. رفعت وليده رأسها إلى الأعلى وأزاحت خصلة الشعر عن جبينها بطرف يدها: "حين التحقت بالإذاعة في بداية الستينيات كانت البي بي سي تهتم كثيراً بتقديم الدراما الإذاعية المبنية على عيون الأدب الإنكليزي خاصة ما يدرس في الجامعات العربية، وكان كبار الممثلين والممثلات العرب يشاركون في هذه الأعمال الدرامية. أرسلوني إلى دورة تدريب متقدمة جداً في إخراج الدراما الإذاعية لأعود وأخرج حلقات مسلسلة عن روايات معروفة. سألني مديري يومها، هل أنت مستعدة للتحدي فستكون دورة عالية المستوى. قبلت التحدي."

كانت الدورة التدريبية في مقر الإذاعة الرئيسي في مبنى لانغهام هاوس قرب أوكسفورد سيركيس، وكان عليَّ أن أخرج مشهداً درامياً معقداً من رواية جون ليكاريه، الجاسوس الذي عاد من الغياب، تعرفينها. المهم أن المشرف قال لي أنني سأعمل مع ممثل كبير معروف. في صباح يوم التسجيل، ذهبت إلى الأستوديو قبل موعد التسجيل بساعة. جلست في الاستوديو وحدي أراجع كل التفاصيل الصغيرة. قبل موعد التسجيل بخمس دقائق وصل أول الممثلين إلى غرفة التسجيل. نزع معطفه وقبعته وعلقهما على المشجب بكل هدوء، وجلس على أحد الكراسي. دخلت مسرعة لأرحب به. حين رأيت وجهه، أحسست أني سأسقط من طولي. كان الممثل الشهير السير لورنس أوليفير. قال باسماً: "مسز الصالح، أنا في خدمتك." لفظ اسمي تماماً كما يلفظ بالعربية. لم أعرف ماذا أقول. تتابع وصول الممثلين إلى غرفة التسجيل. رحبت بهم وبدأت أعطي الملاحظات والتوجيهات الإخراجية بشئ من الحرج.

ثم بدأنا نسجل المشهد. كان لورنس أوليفير لا يطبق ملاحظاتي التي شرحتها بل يحاول أن يفعل عكس ما قلت. كان واضحاً أنه يتعمد أن يتجاهل ما أقوله. استجمعت شجاعتي، فتحت الميكروفون الذي يوصل صوتي لمن في داخل غرفة التسجيل وقلت وأنا أراقبه من خلف الزجاج الفاصل: "سير لورنس، أرجوك أعد جملتك من البداية، كن أكثر حزماً وقوة فأنت لم تؤدها بالشكل الصحيح. سنعيد من البداية." صاحت عايده التي كانت تستمع كطفلة صغيرة استهوتها حكاية من قصص الخيال: "ماذا؟ قلت ذلك للورنس أولفيير؟" تضاحكت وليده: "أي والله وابتسم وهو يقول بأدب جم، حاضر سيدتي. أقول لك الحق، شعرت أن قلبي سيتوقف. استمر التسجيل وأدى أوليفير دوره على أحسن وجه. بعد يومين كان علي أن أواجه اللجنة التي ستستمع لعملي وتقيمه. دخلت الغرفة. كان لورنس أوليفير يترأس اللجنة. حيّاني وابتسم، وفهمت اللعبة. كان حضوره ليمثل عملاً من إخراجي، جزءاً أساسياً من التدريب. أدخلوني امتحاناً صعباً، كيف أواجه نجماً مثل أوليفير وأعطيه التوجيهات، هل سأخشاه أم أتعامل معه تعامل المخرج مع الممثل. وقد نجحت في الامتحان. أرأيت؟ أين ذاك مما نحن فيه اليوم؟"

تنهدت عايده: "ماذا أقول والله لا أدري. هيا أعطيني المزيد من هذا الطعام الملوكي يا سنيورة السنيورات."

تقلبت في فراشها، استلقت على ظهرها. مدت يدها إلى المصباح الصغير القريب من فراشها.
لا لن تضيء المصباح. نظرت إلى الستائر السميكة التي تغطي الباب المؤدي للشرفة، لا شك أن القاهرة هجعت الآن. استدارت بجسمها ولفت ذراعها تحت رأسها. وليده كانت على حق، نجح البرنامج وأثار ضجة كبرى فقد سبق عصر الفضائيات والإنترنيت في الحديث في موضوع كان حكراً على رجال الدين والنساء المسنات في همسهن للعرائس. بعث المستمعون بآلاف الرسائل يحيون البرنامج ويطلبون الكتيب الذي طبع خصيصاً ليرافقه. لم يهاجمه سوى قلة قليلة. أرسل لها رئيس القسم العربي رسالة شكر وتقدير ومنحها مكافأة مالية قيمة. ثم جاءت رحلة دمشق.

قرر القسم العربي الذي كان مهتماً جداً في بداية التسعينيات بتحسين صورته وتقديم نفسه كإذاعة تواكب المتغيرات وتنافس الفضائيات وتجذب المستمعين الشباب، أن يقدم برنامجاً حياً من معرض دمشق الدولي. كالعادة، دعا عاطف إلى اجتماع موسع في مكتبه. تراصف الزملاء والزميلات على الكراسي المنتشرة حول مكتب عاطف. كانت هي تعرف سبب الاجتماع فعاطف لا يخفي أسرار العمل عنها خاصة حين يكون بحاجة لمساعدتها، لكنه لا يقول لها كل التفاصيل حتى اللحظة الأخيرة. جلس عاطف وراء مكتبه وهو يقول: "سننتظر وصول سعيد لديه برنامج على الهواء سينتهي الآن. سيكون هنا بعد دقائق." استغربت عايده حضور سعيد اجتماع وحدة إعداد البرامج بينما هو يعمل في قسم البرامج الإخبارية. نظر إليها عاطف وكأنه يقرأ أفكارها وهمهم: "سعيد كما تعرفون عمل لسنين في الصحافة في دمشق، وهو ابن البلد وسيقدم لنا الكثير من العون." دخل سعيد. لم يجد مكاناً فجلس على حافة النافذة الخشبية العريضة. نظر نحوها باسماً وهزّ رأسه محيياً.

صاح عاطف مستمتعاً بهذه اللحظة التي يجتمع فيها كل العاملين تحت إمرته في قسم البرامج والموسيقى في مكتبه: "حسناً، سنبدأ الاجتماع. رجاءً أحدكم يغلق باب الغرفة. لدي خبر مهم سيعجبكم جميعاً. قررنا أن نشارك في معرض دمشق الدولي. سيكون هناك جناح خاص بنا. الجناح عبارة عن باص بطابقين يمثل لندن وسنستقبل الجمهور فيه. وسنقدم حلقة من برنامجنا اليومي المفتوح الذي يمتد لساعتين من إذاعة المعرض." تعالت همهمات الموافقة والإعجاب بين الحضور. عاد عاطف يقول: "سنستضيف في تلك الحلقة الخاصة عدد من نجوم الأدب والفكر والفن في سوريا ومجموعة من ضيوف المعرض. سيكون برنامجاً عظيماً. وعليه نحن بحاجة الآن لأن ننقسم إلى فريقين أحدهما يعمل من هنا، من لندن، يعد الأغاني والموسيقى ويكون

مستعداً في حالة حدوث أي انقطاع لتقديم بديل على الهواء من لندن. وفريق ثانٍ سيكون في دمشق على أرض المعرض لإنجاز البرنامج واستقبال الزائرين لجناح إذاعتنا."

كان يتكلم كعادته وبيده قلم يرسم به خطوطاً ودوائر على ورقة أمامه ويرفع رأسه بين الفينة والأخرى ليجول بعينيه بين الحضور. هو بلا شك تكتيك تعلمه في إحدى الدورات الإدارية التي كان يدخلها ليتمكن من ضبط الموظفين وتمشية أمور القسم الذي يديره. عاد عاطف يقول بنبرة من يملي أوامره: "الخبر الثاني المهم هو أني سأقود فريق دمشق، وأقوم بإخراج البرنامج وسيقدم البرنامج من دمشق عايده وحامد وسيكون سعيد مساعد المخرج وحلقة الاتصال مع الضيوف." شعرت عايده بقلبها يهوى. حامد؟ هذا ما أخفاه عنها حتى الآن. حامد رجل متظارف، يفتقر تماماً للثقافة. لكنه صديقه المقرب وابن بلده. عاد عاطف يقول: "وقد اخترت أربعة من الزملاء والزميلات ليكونوا ضمن الوفد الذي سيستقبل زوار جناحنا." كانوا هم الآخرين من أصدقائه المقربين. لا بأس، هكذا هو دائماً. هل تقول شيئاً أم تسكت. سمعته يقول: "هناك نقطة تقنية مهمة، هي أن البرنامج سيكون مسموعاً في دمشق من خلال إذاعة معرض دمشق المحلية، لكنه سيبث من لندن لمستمعينا في كل مكان."

انتهى الاجتماع. توجهت إلى غرفتها. جلست خلف مكتبها. سمعت طرقاً على الباب الزجاجي. التفتت، رأت سعيد يفتح الباب ببطء وهو يقول مبتسماً: "سلام." همهمت: "أهلاً سعيد." أسرع يقول: "أريد فقط أن أطمئن عليك. هل أنت غاضبة مما حدث؟" رفعت عينيها إليه على امتداد قامته، كان يقف أمامها وفي عينيه ذاك الحزن الغامض. همهمت ضاحكة: "اجلس يا سعيد الله يرضى عليك. اجلس، انكسرت رقبتي." وضع يده على فمه يكتم ضحكة. جلس على الكرسي القريب من مكتبها. عادت تقول: "لست غاضبة، ولكن لماذا أقحم حامد هكذا. هذا الرجل ليس لديه أي خبرة برامجية ومعلوماته العامة ضعيفة. هو رجل لا يقرأ ولا يتابع الأحداث حوله. كيف بالله سيجري مقابلات مع كتاب وفنانين سوريين معروفين؟" همهم سعيد: "أعرف يا عايده أعرف. سنتدبر أمره." تصاعد غضبها: "ولماذا نضيع جهدنا في تدبر أمره، المفروض أنه عون لنا وليس مصدراً للمصائب. أنت لا تعرفه يا سعيد. كل خبرته الإذاعية تنحصر في قراءة نشرة الأخبار وإن خرج من الأستوديو بعد قراءة النشرة وسألته عن تفاصيل أي خبر قال لا أعرف." تضاحك سعيد وهمهم: "يعني سيكون معك فريق متعب، هو غير متمكن وأنا بلا خبرة."

بدى كطفل صغير. أحست أنها قست عليه. همست: "آسفة يا سعيد لم أقصد إزعاجك، ولكن نحن سنقدم برنامجاً حياً، أي معظم ما سيقال سيكون مرتجلاً يعتمد على الحس الإذاعي وسرعة البديهة. أوف. تعبت من كل هذا. حامد سيأتي معنا لأنه صديق عاطف، لأنه يريد أن يزور دمشق وليس لكفاءته أو حاجة الفريق له. ثم هو لم يقدم برنامجاً حياً في حياته." صمتت لحظة وعادت تقول: "أتعرف، لقد كبرت، صرت دائمة التذمر. علمني كيف ابتسم أمام المشاكل كما تفعل أنت الآن." اتسعت ابتسامة سعيد: "أنا ابتسم كي أهدئ أعصابك. عايده دعك منه، أنا سأسبقكم إلى دمشق، هل نسيت أن لي معرفة كاملة بالوسط الأدبي والفني؟ سأرتب لقاءات مع عدد من الادباء والفنانين وأزودكم بمعلومات عن نتاجهم وخلفياتهم الثقافية. أنا سأساعد في إعداده لكن عاطف لم يذكر ذلك لسبب أو لآخر. هيا اهدأي. المهم أنك ستأتين إلى دمشق، إلى مدينتي، وسأكون أنا هناك معك، وسأعرفك على كل معالمها الخفية التي لا يعرفها سوى الراسخين في العلم من أمثالي."

كان يجلس منحنياً نحوها بهامته من الكرسي الصغير الذي يجلس عليه. ابتسمت: "صحيح سنكون في بلدك، في دمشق، شآم الجميلة يا سعيد." أسرع يقول: "ستكونون في عيوني. أرجوك يا عايده إنسي حامد. المهم إنني سأكون معك في دمشق، مدينة الياسمين." احمرت وجنتاه، بدا كطفل فعل ما يستحق العقاب. أحست بقلبها يذوب. همست بحنان: "منذ متى لم تر أسرتك؟" همهم: "منذ الصيف الماضي. اشتقت لهم. أختي الصغرى أُعلنت خطوبتها لزميلها في الجامعة، ولم أحضر حفل الخطوبة." صمت لحظة وعاد يقول: "ستكون فرصة طيبة لرؤيتهم ولأعرفك بهم يا عايده. كما أحلم أن آخذك في جولات في دمشق القديمة، لأريك ما لا تعرفينه عن أقدم عاصمة مسكونة ليومنا هذا." تأملته في جلسته على الكرسي الصغير ببنطلونه الجينز وشعره الأسود اللامع وعينيه الحزينتين. ابتسم: "أكاد أطير من الفرح. لا أصدق أننا سنسافر أوائل الشهر القادم، ستكون رحلة جميلة صدقيني." جمعت أوراقها. وقفت أمامه انتابها شعور غريب، ملأ كل كيانها، مزيج من حزن وخوف وفرح خفي. همهمت: "لدي أستوديو. عن أذنك يا سعيد وشكراً لأنك تحملت لحظة غضبي أنا آسفة." ابتسم: "أنا جاهز لخدمتك كيفما تكونين يا عايده."

وقف الباص الأحمر ذو الطابقين شامخاً، في أحد زوايا أرض معرض دمشق الدولي، غير بعيد عن مدخل المعرض الجانبي المؤدي إلى الفندق الفخم الذي حلّوا فيه. كانت الموظفة المسؤولة عن الدعاية والإعلام قد سبقتهم بأيام وملأت جناح البي بي سي الفريد، الباص الأحمر ذا الطابقين، بالمنشورات والصور الدعائية الملونة عن الإذاعة وبرامجها والعاملين فيها، ومواعيد بث البرامج وجداول الموجات العاملة. صعد سعيد إلى الباص ووقف عند الباب، وقد تدلى نصفه إلى الخارج وراح ينادي بلهجته الشامية المحببة: "صالحية، صالحية، أبو رمانه، البلد" مقلداً أصحاب سيارات الأجرة التي تنقل الركاب بين أحياء دمشق المختلفة.

جاء عاطف مع بقية الزملاء. حيا الجميع بابتسامته المعهودة وصاح: "أهلاً بكم في دمشق، اليوم يوم مهم جداً بالنسبة لنا جميعاً. علينا أن نستعد بكل ما لدينا. فريق إعداد وتقديم البرنامج، سيذهب إلى إذاعة المعرض لتنظيم كل الأمور الصغيرة. لا تنسوا أننا سنكون على الهواء عند الساعة الثالثة بتوقيت دمشق. سعيد أعدَّ قوائم بأسماء الضيوف الذين سنستضيفهم اليوم. عايده ستنظم قائمة الأغاني والموسيقى مع بوش هاوس على الخط الخاص الذي يربطنا بهم." نظر إلى ساعاته وعاد يقول: "لدينا حوالي الخمس ساعات من الآن. عايده قودي الفريق إلى إذاعة المعرض، ثم خذوا استراحة للغداء لتعودوا في الثانية للاستعداد النهائي وسألحق بكم عندها."

تبرع سعيد بإيجاد الطريق الأقصر إلى إذاعة المعرض. ساروا في ممشى طويل تناثرت على جانبيه صالات العرض المختلفة للشركات والمؤسسات والدول المشاركة في المعرض. مروا بمسرح المعرض الشهير الذي قدم عليه كبار الفنانين العرب حفلاتهم، فيروز ووديع الصافي وفرق الرقص والغناء الشعبي من مختلف أنحاء العالم. وصلوا إلى الإذاعة، مبنى بسيط يضم استوديو البث وبضع غرف صغيرة. راجعت عايده قائمة أسماء الضيوف التي أعدها سعيد، فنانون وكتاب وشعراء وصحفيون. أسماء لامعة أسعدها أنها ستلتقيها بعد أن استمتعت بنتاجها الفكري والإبداعي. همست لسعيد: "شكراً، سلمت يداك اختيارات موفقة جداً. برافو." بدأت تكتب بعض المقدمات وتعد بعض الأسئلة. قالت لحامد: "سنتناوب على التقديم. أهم شئ أن ننسق فيما بيننا. سنقسم وقت البرنامج. لا تنسوا أننا سنتوقف في تمام الساعة لموجز الأنباء وعليه الأفضل أن ننهي بأغنية كي يتمكنوا في لندن من السيطرة على الوقت." اقترح سعيد موضوعات طريفة تطرح على بعض الفنانين من الضيوف فقد كان أكثرهم إلماماً بأعمالهم وحياتهم وهوياتهم. وافقته عايده وكتبت ملاحظات بمقترحاته، ونسقت مع بوش هاوس قائمة الأغاني التي ستذاع من لندن مباشرة.

مر الوقت سريعاً وأنجز الإعداد للبرنامج الحي. قال حامد: "يا جماعة أنا جعت. لنذهب إلى الفندق للغداء ونستريح ثم نعود قبل البرنامج بساعة." همهمت عايده: "فكرة عظيمة ولكن عليَّ أن أتأكد من بعض التفاصيل. أذهب أنت يا حامد وخذ معك سعيد وسألحق بكما بعد قليل." صاح سعيد: "أنا لست جائعاً. سأنتظر معك علك تحتاجين لشيء." حياهما حامد وغادر إلى الفندق. همست عايده: "بصراحة يا سعيد أنا غير مطمئنة من ناحيته." تضاحك سعيد: "كوني متفائلة. اتركيه لي. هيا تعالي نذهب للغداء، ليس في الفندق. سآخذك إلى مطعم قريب بيعمل أطيب فتة حمص في دمشق." تضاحكت عايده: الله على فتة الحمص ولكن ألن تكون ثقيلة في الجو الحار؟" انحنى سعيد نحوها: "خبز وحمص ولبن وطحينه، أكله حلوة وخفيفة. هيا تعالي."

سارا نحو باب الخروج الجانبي، عبرا الشارع العام ودخلا شوارع جانبية ضيقة تصطف على جانبيها بيوت دمشقية بنيت في الخمسينيات، تفترش أسيجتها شجيرات الياسمين. قطف سعيد بضع زهرات ووضعها في كف عايده. استنشقت رائحة الياسمين. أغمضت عينيها وهمست: "الله عليك يا دمشق." وقف بها أمام بيت طليت جدرانه باللون الابيض يحمل لافتة تقول "مطعم الدمشقي." دخلا المكان. كان بيتاً تحول إلى مطعم صغير. أسرع صاحب المطعم يرحب بسعيد. أشار لاحد العاملين: "طاولة عالجنينة للأستاذ سعيد. يا أهلاً، يا أهلاً وسهلا." جلسا متقابلين على مائدة صغيرة قرب نافذة تطل على حديقة صغيرة زرعت بالورد والياسمين وزهرة حلق السبع، أو فم السمكة كما يسميها البعض. طلب سعيد طبق فتة شامية وطبق كباب شامي وهو يقول للنادل: "بدي طلب مدلل، اليوم معنا الست عايده من البي بي سي." اتسعت عينا النادل الشاب وهمس: مدام عايده وهران؟ ياميت أهلين وسهلين نورت الشام." التفت نحو سعيد وهو يقول باستيحاء: "خبّرها لمدام عايده إني مستمع مزمن للبي بي سي." تضاحكت عايده: "أهلاً بك ومرحبا. اليوم سنقدم البرنامج المفتوح من معرض دمشق، وابتداءً من الغد تستطيع أن تزورنا في جناحنا. ستجده بسهولة، ما بيضيّع، باص أحمر من طابقين."

كان الطعام لذيذاً، فتة الحمص والكباب المشوي مع حبات الطماطم. بدا سعيد فرحاً وهو يأكل ويحكي عن دمشق وأهلها وأنواع الفتة ويغريها بين الفينة والأخرى بقطعة طرشي أو حبة زيتون ويكاد يطعمها بيده، ثم يسكت لحظة ليقول: "معقول؟ أنتِ هنا في دمشق؟" ويضحك كالطفل الصغير. جاملته وضحكت لنكاته لكنها في حقيقة الأمر كانت منشغلة بما هو آت. هكذا هي دائماً تظل في قلق قبل تقديم أي عمل.

في المساء جلس الفريق بكامله في المطعم المقام على شرفة كبيرة في الفندق، يتضاحكون ويتحادثون ويأكلون البوظة الشامية سعداء فرحين. تم كل شئ بسلاسة. استطاعت عايده بخبرتها أن تدير البرنامج، وأضاف سعيد الكثير من خفة روحه وانسجم حامد فقدّم أفضل ما عنده، فكانت الساعتان الإذاعيتان في غاية الانسياب والجمال. كان جو المساء رطيباً والنسيم يحمل برودة محببة بعد دفء النهار وشمسه الوهاجة. تعالى صوت مغنية تردد أغنية سيد مكاوي الشهيرة "ليلة أمبارح ما جانيش نوم." تضاحكت عايده: "من هذه المغنية"؟ أسرع سعيد يقول: " مغنية في النادي الليلي في الدور العاشر." صاح عاطف: "هل تريدون سهرة في النادي الليلي، هناك المغنية والراقصة اللهلوبة. تعالوا نحتفل بنجاحنا. سهرة في النادي الليلي." ابتسمت عايده: "أنا، لا، شكراً. كان يوماً متعباً طويلاً وأريد أن أستريح. سأذهب لغرفتي فغداً علينا أن نستقبل الزوار في باصنا العامر." حملت حقيبتها واستعدت للمغادرة. عاد عاطف يقول لسعيد: "هه وأنت يا سعيد ألا تحب أن تسهر في النادي الليلي؟" أسرع سعيد يقول ضاحكاً: "سأسهر عند عائلتي وعدتهم أن أنام ليلتي عندهم." همهمت عايده وهي تقوم من مقعدها: "بلغهم تحياتي. تصبحون على خير يا جماعة." التفت عاطف لحامد: "لم يبق سوانا ماذا تقول في سهرة في النادي الليلي." ابتسم حامد وهو يقول بصوته المنغم: "ما فيش مانع."

في صباح اليوم التالي، رنّ جرس التلفون في الغرفة. جاءت مسرعة من الحمام حيث كانت تضع اللمسات الأخيرة من زينتها. سمعت عاطف يقول: "صباح الخير يا عايده، إزيّك. اسمعي أريد أن أراك لأمر هام." تضاحكت "ماذا اجتماع يا عاطف؟ هنا في دمشق الساعة التاسعة صباحاً؟ مازال الدمشقيون نيام." جاء صوته جاداً حاد النبرات: "عايده تعالي بسرعة سأنتظرك على مائدة الفطور." وضعت السماعة، حملت حقيبتها ونزلت إلى صالة الطعام. جلست أمامه وبدأت ترشف قهوتها ببطء. بدا متجهماً بعض الشيء. همهمت: "خير يا عاطف ما الحكاية." تنحنح قليلاً وقال بابتسامته المعهودة: اسمعي، اتصل بي هذا الصباح مدير مكتب وزير الإعلام وقال إن الوزير طلب من البي بي سي أن تواصل تقديم حلقة يومية من البرنامج المفتوح من إذاعة المعرض." همهمت: "هل معنى ذلك أننا سنمدد أقامتنا في دمشق؟" ابتسم عاطف: "لا سنغادر أنا وحامد كما هو مقرر وتبقين أنت لتقديم البرنامج سيكون ساعة واحدة وليس ساعتين." كاد فنجان القهوة أن يسقط من يدها. أسندته بكلتا يديها قبل أن تضعه على الطبق. همهمت: "ماذا؟ تريدني أن أعد وأقدم وحدي برنامجاً يومياً في مدينة غريبة لم أعتد العمل فيها. أين سأعمل وكيف أعد البرنامج؟" تضاحك: "قدها وقدود يا عايده. وزارة الإعلام ستقدم لك المساعدة من أجل مقابلة من ترغبين من شخصيات معروفة في دمشق، وفريق لندن جاهز للتعاون معك في كل ما تحتاجين من موسيقى." تأملته بصمت. لقد تخلى عنها. سيتركها تتدبر الأمور وحدها. عاد يقول: "عايده إدارة البي بي سي وافقت. ستقدمين البرنامج وحدك وتبقين حتى نهاية الأسبوع. سأغير موعد سفرك وأمدد إقامتك في الفندق."

هذه أوامر عسكرية. واضح أنه تم الاتفاق على كل شيء دون علمها. همهمت بصوت مرتجف: "ولكن هذه ساعة إذاعية يا عاطف كيف أعدها وحدي يومياً دون مساعدة؟" أسرع يقول: "سعيد سيكون موجوداً في دمشق. هو في إجازة لزيارة أهله لمدة عشرة أيام، وقد وافق أن يقدم لك المساعدة إذا احتجت لشيء." دفع كرسيه ووقف. همست: "ماذا عن برنامج اليوم؟" همهم: "سعيد سيكون هنا بعد دقائق. كلمته وقال إنه في طريقه إليك ولديه بعض المقترحات. يجب أن أذهب إلى جناحنا لترتيب الأمور. وهناك ضيوف مهمّون سيزورون الجناح هذا الصباح يجب أن أكون موجوداً في استقبالهم. أراك فيما بعد. حظاً سعيداً."

جلست صامتة في مكانها. لقد فعلها من جديد، وضعها في موقف يتحدى كل إمكانياتها وقدراتها. ستجد مواد مناسبة لحلقة اليوم، وتضع خطة محكمة لما ستفعله على مدى الأيام القادمة، مقابلات حية وحديث عن دمشق وتاريخها وتراثها الأدبي والموسيقي. ستستعين بكل

خبرتها لتعطي أفضل ما عندها، لترضي مهنيتها كما فعلت مرات حين وجدت نفسها في مواقف مشابهة.

انتبهت على صوت سعيد يهمس خلفها: "صباح الخير." هتفت ضاحكة: "عاطف رمى بي في الجزء العميق من البركة كما يقول الإنكليز وأجد نفسي على وشك أن أغرق." جلس سعيد في المقعد المقابل لها. سكب لنفسه فنجان قهوة: "سلامتك يا عايده، لن تغرقي أبداً. مثلك لا يغرق. اسمعي يا سيدتي لقد رتبت لك ثلاثة مواعيد مع ضيوف لبرنامج اليوم، وكل ما أحتاجه موافقتك." تأملته عايده بصمت. أخرج ورقة صغيرة من جيب قميصه: "شوفي يا ستي، الضيوف هم، شاعر شاب معروف في كل الأوساط الثقافية الدمشقية، وملحن أثار الاهتمام بما كتب من موسيقى تصويرية لمسلسلات درامية ناجحة، سيجلب عوده ويعزف، ومهندس معماري مليء بالحكايات عن تاريخ دمشق ومبانيها القديمة. ما رأيك؟" همست عايده مأخوذة الأنفاس: "سعيد صبحي أنت صانع برامج عبقري. ماذا أقول؟ شكراً." تضاحك: "معنى ذلك أنك موافقة. عظيم سأعيد الاتصال بهم وأطلب منهم أن يحضروا إلى الاستوديو قبل ساعة من موعد البث كي تتحدثي معهم." همهمت:"وأنا سأعد مادة عن معرض دمشق الدولي وتاريخه وأقول إنه سيكون مقرنا للأيام القادمة. لدي بروشرات يمكن الاستعانة بها."

استرخت في مقعدها. تأملته لحظة. كانت عيناه تلتمعان بذاك البريق الغامض من الحزن. همست: "سعيد ستكون مساعد مخرج في البرنامج وسأعلن ذلك على الهواء وليفعل عاطف ما يحلو له." صمتت لحظة وعادت تقول: "أملى عليَّ أوامره هذا الصباح وخرج، دون حتى أن يعرض عليَّ أي مساعدة." همهم سعيد:" ألا تعرفين السبب؟" ابتسمت عايده: "لأنه عاطف." انحنى على المائدة نحوها وهو يقول: لا، لأن وزير الإعلام طلب أن تقدم البرنامج عايده وهران وحدها. طلبك أنت بالذات يا عايده." اتسعت عيناها: "الوزير طلبني أنا بالذات؟" همهم سعيد باسماً: "نعم. قال لعاطف أنه يريد أن تقدم عايده وهران حلقة كل يوم من إذاعة المعرض لمدة أسبوع. عايده هذا تقدير كبير لك." همهمت: "نعم وهو مسؤولية كبيرة في نفس الوقت." صمتت لحظة وعادت تقول: "أريد أن أقدم شيئاً جديداً، أن أقدم للمستمع الناس العاديين الذين جعلوا دمشق المدينة التي نعرف، الصناع المهرة، من صانع الدوندرمة الشهيرة في سوق الحميدية، إلى الطارق على النحاس وناقش الخشب بالصدف، إلى بائع الحلوى والاعشاب والزهورات. أريد دمشق بكل ما فيها من ناس وأصوات وروائح." تأملها باسماً: "إذاً لنبدأ بجولة في دمشق القديمة كي تكتبي بعض الانطباعات بعدها أنت مدعوة لفنجان قهوة عند أم سعيد، أمي. وعدتها أنك ستلبين دعوتها."

كانت هناك سيارة صغيرة تنتظر عند مدخل الفندق. همهم وهو يحاول أن يحشر نفسه في مقعد السائق: "استعرتها من صديق." حاولت أن تمنع ضحكة كادت أن تفلت منها وهي تجلس بجانبه. جال بها شوارع دمشق القديمة، مر من ساحة المرجة، رأت القلعة القديمة التي تحرس مدخل سوق الحميدية الشهير. دخل شوارع ضيقة تحيط بها بيوت دمشقية تقليدية، ثم توقف أمام باب خشبي كبير. نزل من السيارة وهو يقول: "تفضلي إلى دار أهلي." فتح لها باب السيارة. كان بيتاً من بيوت دمشق التقليدية يحيط به جدار مرتفع تتدلى عليه شجيرات الياسمين والورد وتطل من فوقه اشجار البرتقال والنارنج.

دفع الباب فانفتح على باحة كبيرة تتوسطها بركة بنافورة يتدفق منها الماء بصوت منغم، تدور حولها أصص الورد، وعلى جانبها يمتد بيت من طابقين بسلم خارجي. همست مأخوذة الأنفاس: "الله يا سعيد ما أجمل هذا البيت." انتبهت على صوت يرحب بها: "يا أهلين وسهلين يا ميت أهلاً وسهلاً يا ست عايده نورتينا. أهلاً أهلاً أنا أم سعيد." كانت سيدة في أوائل الخمسينيات من عمرها ببشرة وضاءة وعينين واسعتين براقتين تحيها باسمة. ابتسمت عايده وهي تردد عبارات الشكر. عادت أم سعيد تقول: "تفضلي يا ست عايده أبو سعيد ينتظرنا في غرفة الاستقبال." دخلت إلى غرفة واسعة بأبواب زجاجية تطل على الباحة. كان والد سعيد يقف أمام كرسي قريب من الباب. رجل مهيب يتكئ على عصا. مد يده مصافحاً: "ست عايده اعذريني لأني لم أخرج لاستقبالك حركتي صارت صعبة هذه الأيام." همهمت: "ألف سلامة عليك اتشرفت بمعرفتك." جلست على المقعد القريب منه. دارت بعينيها في الغرفة المفروشة بالأثاث الدمشقي المطعم بالصدف. انتبهت على صوت أم سعيد تقول: "والله يا ست عايده مو عارفين كيف نشكرك على مساعدتك لسعيد." تضاحكت عايده: "لم أفعل سوى الواجب. هو الآن من يساعد الجميع." دخلت الغرفة فتاة في العشرين حلوة باسمة فارعة الطول، تحمل صينية عليها أقداح القهوة التركية. همهم سعيد: "ريما أختي." ابتسمت عايده مرحبة. كم تشبه سعيد. دارت ريما بأقداح القهوة ثم جلست قرب أخيها ووضعت الصينية في حجرها. ابتسمت وهي تقول: ست عايده أنت أجمل بكثير مما تخيلتك، سعيد لم يعطك حقك."

في المساء بعد الانتهاء من البرنامج، قال لها سعيد إنه سيأخذها في رحلة إلى أعماق المدينة القديمة: "معي السيارة وسأدور بك دمشق القديمة. الحواري الحقيقية وليس ما يبتدعونه للسياح الأجانب." دار بها في حواري ضيقة وأسواق مليئة بالمأكولات الشامية والأثواب المطرزة والخشب المطعم بالصدف. تضاحك: "الزائرون لدمشق لا يعرفون سوى سوق الحميدية. أنظري ما أجمل هذا السوق الصغير." أوقف السيارة في شارع فرعي وهمهم: "أريد أن أريك شيئاً لا

أظن أنك رأيت مثله من قبل. هل توافقين؟" هزت رأسها باسمة. عاد يقول يجب أن نسير على الأقدام. هل لديك مانع؟" نظرت إليه باستعلاء: "طبعاً لا، أنا ملكة المشي. تفضل استاذ سعيد أرني الطريق للوصول إلى هذا المكان الغامض."

سارا في حارة ضيقة، تصطف على جانبيها البيوت. كان في الجو رائحة الياسمين والقهوة الطازجة. وجدت نفسها تستذكر قصيدة نزار قباني.

للياسمين حقولٌ في منازلنا
وقطةُ البيت
تغفو حيث ترتاحُ
طاحونة البن جزءٌ من طفولتنا
فكيف أنسى
وعطر الهيل فواحُ.

استدار بها سعيد في زقاق ضيق، سار بضع خطوات، ووقف أمام باب خشبي عتيق. أخرج من جيبه مفتاحاً كبيراً. صرَّ الباب الذي انفتح على درجات ضيقة شديدة الانحدار. همست: "ما هذا؟" ابتسم: "سأصعد أمامك كي أقودك إلى الأعلى." دخلت خلفه. أغلق الباب. صعد درجة ثم مد لها يده. أمسكت بها وصعدت خلفه. وجدت نفسها في باحة صغيرة تدور حولها ثلاثة أبواب. أتجه إلى أحدها وفتحه بمفتاح قديم آخر. دفع بالباب إلى الداخل ووقف عند العتبة وهو يقول: "تفضلي، أدخلي وانتبهي للعتبة الخشبية العالية."

خطت فوق العتبة، وجدت نفسها في غرفة فسيحة اصطفت حول جدرانها أرائك منخفضة من الخشب المحفور، مقاعدها مكسوة بالحرير الدمشقي الموشى بخيوط ذهبية. فتح سعيد ستارة الشباك الكبير الذي يواجه الباب، ملأ الضوء أركان الغرفة. رأت المرآة التي تكاد تلامس السقف، والشمعدانات الزجاجية العتيقة فوق خزانة من الخشب المشغول بالصدف. همست مبهورة الأنفاس: "ما هذا؟" ابتسم سعيد: "هذا بيتي يا عايده، اشتريته قبل ثلاث سنوات. هذه غرفة الجلوس وهناك غرفة نوم ومطبخ وحمام. مكان فيه كل ما أحب، كل عبق مدينتي." سارت ببطء باتجاه النافذة ووقفت تتأمل أسطح البيوت المجاورة وقد اخترقها زقاق ضيق مرصوف بالحجر، وهنا وهناك أشجار ترتفع لتضفي ضربة فرشاة خضراء على لوحة كبيرة.

أنتابها إحساس بأنها في عالم سحري. همست: "ما أجمل هذا المنظر. لوحة كبيرة على امتداد البصر."

أحست به يقترب منها ويقف خلفها. ظلت على وقفتها تتأمل المشهد أمامها في ضوء شمس بدأت تتلون بألوان المغيب. فجأة وضع يديه على كتفيها، وأدارها نحوه بلطف. كان في عينيه حزن أعمق من أي حزن رأته فيهما من قبل. انزلقت يداه على ذراعيها ودفع جسدها برفق إلى صدره. غمرها دفء جسده. استكانت في حضنه. أغمضت عينيها. أحست به يرتجف كعصفور صغير بيد مطبقة عليه. انحنى برأسه نحوها، قبلّ جبينها وهمس: "عايده، أرجوك دعيني أحبك." أبعدها عنه وأجلسها على الأريكة تحت النافذة وجلس بجانبها. أمسك بيديها بين يديه وراح يتأملهما بصمت. رفع عينيه نحوها وعاد يهمس: "أحببتك مذ رأيتك لأول مرة. كنت أظن أنه مجرد إعجاب بإنسانة كل ما فيها جميل. لكن حبي لك تراكم مع الأيام. فكرت مراراً أن أفصح عنه، لكنني خفت أن أخسرك، فسكت وكتمت مشاعري. لا أدري كيف تجرأت اليوم، ربما تشجعت حين رأيتك تطلين من نافذتي على مدينتي." تأملته بصمت. كانت أشعة الشمس الغاربة تحنو على المكان. همهم: "سأقولها مرة أخرى، أنا يا عايده أحبك حباً لم أعرفه من قبل. أحب فيك كل ما فيك، وأجد نفسي حين أكون معك."

بدا وسيماً وقد امتزج حزن عينيه ببريق الرجاء. همست باسمة: "الله يا سعيد كم تشبه في هذه اللحظة فارس أحلامي الذي بحثت عنه في سني مراهقتي وشبابي المبكر. هو أنت بلا زيادة ولا نقصان. لو وجدتك آنذاك لأحببتك بكل ما أملك من قدرة على الحب. لكنك يا سعيد، جئت متأخراً سنين كثيرة كبرت فيها وما عاد ذاك الفارس يزور أحلامي." تشبث بيديها: "عايده لا تقولي ذلك أرجوك. دعيني أحبك. أحتاج لأن أحبك وأريد أن تعرفي أنني أحبك. لا أريد أكثر من ذلك." همست بحنان: "ألا تريد أن أبادلك الحب؟" أسرع يقول: "لا أريد أن أرغمك على شيء. ربما عندما تدركين مقدار حبي لك ستحبينني." ابتسمت: "أنت يا سعيد تستحق الكثير من الحب." صاح: "إذاً أحبيني يا عايدة، أحبيني لأنني بحاجة لك، لأنك المرأة التي تملأ عقلي وقلبي، وتعزف على كل أوتاري." أحست بقلبها يذوب. همست: "ولكن ماذا سيقول من حولنا عن امرأة تكبر رجلها بعشر سنين. هل فكرت ماذا ستقول والدتك؟ ستتحول الست عايده، التي كانت تراها راعية لابنها في غربته، إلى امرأة شريرة توقع الشباب الصغار في حبائلها. صاح ملتاعاً: "لا لا يا عايده لا تقولي هذا أرجوك. أمي سيسعدها أن أجد امرأة مثلك تشاركني حياتي." ملأها إحساس غريب بالخوف، منه وعليه. همهمت وهي تسحب يديها من بين يديه:

"لا يا سعيد. أمك ستقول إنني تجاوزت سن الزواج وستقنعك بالزواج ممن تستطيع أن تنجب لك أبناءً وبنات. هذا هو الواقع."

أعتدل في جلسته، أحنى رأسه وراح يبحلق في البلاط الملون الذي يفترش أرض الغرفة، وتتكرر نقوشه. همهم: "هذا ما كنت أخشاه، أن يكون رفضك هو الجواب الوحيد الذي تملكينه. أنا لا يعنيني ما سيقوله الناس أو ما ستقوله أمي. أنا رجل عاقل بالغ كل ما يعنيني أنني أحبك. افهمي ذلك أرجوك." صاحت: "أنت من عليه أن يفهم يا سعيد أنني لا أستطيع، أرجوك افهم لا أستطيع." صاح مغاضباً: "لا تستطيعين ماذا يا عايده؟ لا تستطيعين أن تحبيني لأن هناك فارق في العمر بيننا؟ وماذا عن الكثير الذي يجمعنا، ماذا عن أننا نملك أن نسعد بعضنا؟ ماذا عن القيمة الحقيقية للحياة التي تظلين تتحدثين عنها؟" همهمت: "سعيد يمكننا أن نستمتع بكل ذلك ونحن أصدقاء." أسرع يقول: "كفى عقلانية. ارحميني وارحمي نفسك. ألا يمكن أن تفكري بقلبك؟" همهمت وقد تهدج صوتها: "فعلت، فعلت يا سعيد، فكرت بقلبي مرتين وتفتت في كل مرة قطعاً صغيرة جمعتها بصعوبة لأواصل العيش، ولا أريد له أن يتفتت من جديد." أمسك بيديها. دار بعينيه في وجهها وهمس بصوت مرتجف: "أنا لن أفتت قلبك يا عايده، لن أفتت قلبك، أعدك بذلك لأن قلبك إن تفتت تفتت قلبي معه. أنا أحبك يا عايده أحبك في هذه اللحظة أكثر من البارحة."

راعها ما في عينيه من حزن. مسحت على خده بسبابتها. أغمض عينيه وهمس: "أحتاج إليك يا عايده". لمست ذقنه بسبابتها وهمست: "أنت غير قابل للرفض يا سعيد صبحي. كل ما هناك أنني أخاف عليك مني وأخاف منك عليَّ. ولو عرفت حكايتي لعذرتني."

قامت من جلستها. أمسكت بيده وهي تقول باسمة: "تعال أرني بقية قصرك المدهش هذا قبل أن يلف المكان الظلام."

رفست غطاء السرير. أشعلت مصباح الغرفة. دارت بعينيها فيها. قامت إلى الثلاجة الصغيرة تبحث عن شئ تشربه. أخرجت زجاجة ماء. شربتها ببضع جرعات. جلست على حافة السرير. ما الذي يحدث لها؟ يجب أن تنام. دارت بعينيها في الغرفة. أمسكت كتاباً كانت تقرأ فيه. قرأت سطراً وثانياً ثم سرحت بفكرها فعادت تقرأ السطر الأول من جديد. بدت الكلمات مبهمة غير مفهومة. ألقته جانباً. استلقت في فراشها من جديد وراحت تحلق بالسقف الأبيض علّه يساعدها على النوم ويوقف دوران عقلها.

قضت الأيام الباقية لها في دمشق بسلام. كان سعيد كعهده دائماً مؤدباً خدوماً. أوصلها إلى المطار وودعها بكل الود. حين عاد إلى لندن بعدها بأيام بدا محرجاً بعض الشيء مرتبكاً لا يستطيع أن ينظر في عينيها. كان منطوياً على نفسه ويتجنب الاختلاط بالزملاء. حاولت استمالته بالحديث اليومي العابر لكنه كان يختصر الكلام ما استطاع ويتحجج بالانشغال. كانت حين تخلو لنفسها، تستعيد مرات ومرات ما حدث بينهما، وتستذكر ما قاله بكل ما لديه من قدرة على الصدق. فاجأها إحساسها حين ضمها إليه، لم تغضب ولم تصده بل استسلمت، وملأها إحساس بالأمان. رغم ذلك اعتذرت عن حبه. سألت نفسها مرات ومرات لم فعلت ذلك؟ لم لا تقدر على حبه، فهي ليست المرأة الوحيدة التي تحب رجلاً يصغرها بسنين. هل تخاف أن تحبه فعلاً أم أن فكرة الحب تخيفها. أهو حقاً فارق العمر أم خوفها وجبنها؟

في يوم كانت تجلس إلى مكتبها، فتح باب غرفتها الصغيرة. وقف بالباب لحظة وهمس: "كيفك يا عايده؟" سار خطوات وجلس على الكرسي الصغير القريب من مكتبها. ابتسمت: "أهلاً سعيد، كيفك أنت؟" همهم بعجالة: "أنا بخير." دار بعينيه في وجهها: "عايده إنتي أغلى عندي من أن أفقدك. لا أريد أن تبتعدي عني، لا أطيق ذلك." أسرعت تقول: "أنا لم ابتعد. أنت الذي نأى." أحنى رأسه: "أعرف. أنا آسف. أعترف أنني أفتقد وجودك بعدما اعتدت أن أراك كل يوم وأعمل معك." همهمت عايده: "أنت الملام، مذ عدت من دمشق لم تعطني الفرصة حتى لأشكرك على كل ما فعلت من أجلي وعلى كرم أهلك وحفاوتهم بي." ابتسم: "أهلي يهدونك السلام. الكل معجب بك يا عايده، وأنا آسف إن كنت سببت لك حرجاً في دمشق، لكنني لست نادماً على ما قلت. كان لا بد أن أقوله". ابتسمت: "ليس هناك ما يستحق الاعتذار."

لفهما الصمت. همست وهي تعبث بالأوراق أمامها: "ماذا لديك هذا المساء؟" هز كتفيه: "لا شيء، ينتهي عملي في السادسة." ابتسمت: "هل تحب أن تتناول العشاء مع وليده الصالح؟" اتسعت عيناه: "طبعاً. طبعاً يا عايدة. أين ومتى وكيف؟" أسرعت تقول ضاحكة: "في شقتي

هذا المساء. ستزورني وليده هذا المساء. هي عادة تأكل مبكرة وتنتهي سهرتها مع الساعة العاشرة. هل تحب أن تنضم إلينا؟" بدت على وجهه الحيرة: "ولكن ألن أكون متطفلاً عليكما؟ أنا لم ألتقيها من قبل". تضاحكت عايده: "لا لن تكون متطفلاً مطلقاً. لقد حكيت لها عنك وعن مساعدتك لي في دمشق وقالت إنها تحب أن تتعرف عليك." بدا على وجهه القلق، وفي عينيه تساؤل. أسرعت تقول: "هي تعرف أننا أصدقاء وأظن أنها ستفرح بلقائك وستستمتع أنت بصحبتها." همس: "سيسعدني جداً أن أتعرف عليها خاصة وأنها لا تزور بوش هاوس مطلقاً." ابتسمت عايده: "هي لا تحب الاختلاط كثيراً، لكنها إنسانة طيبة خدومة وتحترم من تعتبرهم أندادها في الفكر والثقافة." تضاحك سعيد: "كم تذكرني بشخص أعرفه." ابتسمت عايده: "أعترف إنني أحياناً أفعل ما تفعله، لا من باب التقليد بل لقناعتي بأنه هو ما يجب أن يفعل. رغم أنها عاشت زمناً أفضل من زمني بكثير. المهم، هل تحب أن تتعرف عليها؟ ثم هي فرصة طيبة لأدعوك لعلّي أرد بعضاً من كرم ضيافتك لي في دمشق." أسرع سعيد يقول: "عايده أرجوك لا تقولي ذلك. يسعدني أن أكون ضيفك. شقتك رقم ستة عشرة صح؟" تضاحكت عايده: "نعم أنت تعرف العنوان بعد أن ملأت لي عشرات الاستمارات خلال رحلة دمشق. إذاً أراك في السابعة."

كانت شقتها لا تبعد كثيراً عن وسط المدينة. قبل السابعة ببضع دقائق، وقف أمام باب الشقة يحمل باقة ورد بيضاء. رحبت به وهي تدخله غرفة الجلوس الواسعة التي تحتل صدرها أريكة كبيرة بيضاء وتمتد على الجدار المقابل لها رفوف خشبية تضم كتباً وأقراص السي دي الموسيقية وبعض الاسطوانات القديمة وتحفيات فضية. وفي الجانب الآخر من الغرفة القريب من المطبخ، مائدة طعام دائرية تتسع لأربعة أشخاص. جلس سعيد على الأريكة الكبيرة، همس وهو يدور بعينيه في أركان الغرفة: "شقتك تشبهك، أنيقة وعملية. ولديك لوحات جميلة هذه لوحة لرسام عراقي معروف." ابتسمت: "هذه هدية والدي حين اشتريت شقتي قبل سنوات. كما تعرف أنا عشت سنين الشباب الأولى في العراق. ماذا تشرب؟ لدي نبيذ أحمر وأبيض وأشياء أخرى." أسرع يقول: "لننتظر وصول وليده." حملت باقة الورد إلى المطبخ وهي تقول: "شكراً سعيد. أنا أحب الورد الجوري."

رن جرس التلفون. عادت عايده مسرعة، رفعت السماعة: "ألو وليده. أهلاً. ماذا؟ كيف؟ المهم أنت بخير؟ حسناً لا تقلقي حبيبتي سأمر عليك غداً وإن احتجت لشيء كلميني." وضعت السماعة. هتف سعيد: "خير ماذا حدث؟" همهمت عايده: " ألتوت قدمها وتجد صعوبة كبيرة في الحركة. تقول إنه إلتواء بسيط ظنت أنه سيتحسن لكنها لا تستطيع أن تمشي وتريد أن تريح

قدمها." بدا القلق على وجه سعيد. أسرعت عايدة تقول: "هي بخير ابنتها معها ولا داع للقلق." قام سعيد من جلسته. بدا مرتبكاً. همهم: "إذاً سأغادر أنا أيضاً." تأملته بابتسامة: "لا ليس قبل أن تأكل الطعام الذي أعددته." عادت إلى المطبخ. لحق بها وهو يقول: "أستطيع أن أغادر يا عايده أنا لا أريد أن أسبب لك حرجاً." فتحت باب الثلاجة وناولته قنينة نبيذ باردة: "الفتاحة في الجرار على اليمين والكؤوس على مائدة الطعام." لم لا نستمع لشيء من الموسيقى؟ اختر انت ما يعجبك."

عاد سعيد إلى غرفة الجلوس. فتح قنينة النبيذ ووضعها على مائدة الطعام التي كانت معدة لثلاثة أشخاص. قلب بعض الاسطوانات واختار واحدة. جاءت عايده تحمل باقة الورد في مزهرية ووضعتها في وسط المائدة. سكب سعيد النبيذ في كأسين وقدم لها كأسها. ابتسمت وهي تجلس على الأريكة الكبيرة: "أهلاً وسهلاً يا سعيد." رشف من كأسه: "واضح أنك تحبين موتزارت." ابتسمت: "جداً. هذا العبقري أبدع كماً من الموسيقى يصعب أن تجد ما يضاهيها، رغم أنه لم يعش سوى خمسة وثلاثين عاماً." رشفت من كأسها وعادت تقول: "أتعرف حين شاهدت فيلم أماديوس المأخوذ عن مسرحية بيتر شافر، أحسست أنني أدرك لأول مرة عمق عذاب المبدع في عالم يتحكم فيه غير المبدعين. ساليري هو الوحيد الذي يقر بأنه لا يستطيع أن ينافس موتزارت وأنه غير مبدع." همهم سعيد: "هذا ما يقوله شافر. لا أحد يعرف مدى صحة هذه الحكاية بين موتزارت وساليري. هي في الأصل من نسج خيال بوشكين." تضاحكت عايده: " صحيح المهم أنها تقول الكثير عن معاناة المبدع بين من هم غير مبدعين." قامت من مكانها، حملت الطبق الثالث والشوكة والسكين والقدح وسارت نحو المطبخ وهي تقول: "يقولون إن ترك طبق الشخص الغائب على مائدة الطعام، فأل سيء."

كانت قد أعدت وجبة بسيطة من اللحم والخضار والبطاطا مع سلطة خضراء. جلسا إلى مائدة الطعام والورود البيضاء تطل عليهما. وضع سعيد قطعة من اللحم في فمه وراح يمضغها باستمتاع. همس: "تسلم إيدك لذيذ جداً يا عايده." تضاحكت: "شكراً. هذه وجبة بسيطة أعددتها في عجالة." رشف من كأسه وهمهم: "هل تجيد وليده الصالح الطبخ؟" صاحت عايده: "الله على الأكلات العراقية التي تجيد صنعها، طباخة من الدرجة الأولى. وليده تحب أن تجيد كل ما تصنع." نظر سعيد إليها باسماً: "أتعرفين يا عايده فيك الكثير منها." تضاحكت: "لأني تعلمت منها الكثير ولكني أكثر واقعية منها. وليده من مدينة البصرة. عاشت فيها سني شبابها الأولى ثم جاءت إلى أوروبا. وقعت في غرام شاعر إيرلندي تزوجته وعاشا معاً في إيطاليا، حيث أنجبت ابنتها الوحيدة. بعد طلاقها منه جاءت إلى لندن وبقيت عراقية في كل شيء."

التمعت عينا سعيد وهو يقول: "العراق، يا سلام، كيف كانت حياتك في العراق؟" ابتسمت عايده: "جميلة وسعيدة ومريحة. تعلمت في مدارس جيدة ودرست الأدب الإنكليزي في جامعة محترمة، حيث وقعت في الحب وتزوجت بعد التخرج." بدا الاستغراب على وجه سعيد. مسحت عايده فمها بطرف الفوطة، شربت قطرات من كأسها وهي تقول: "لم يدم زواجنا أكثر من بضعة شهور بعد سنين من الحب." سادت لحظة صمت. تنحنح سعيد وهمس بصوت مرتجف: "المثل الإنكليز يقول، تحت كل غيمة بطانة فضية. أي اننا حتى في حزننا قد نجد بارقة فرح." تضاحكت عايده: "صحيح لكن البطانة الفضية أحياناً تعوضنا خسائرنا في أمور غير التي سببت لنا الوجع." همهم سعيد: "المهم أنها تعوضنا". تأملته لحظة. كان في عينيه حيرة. أحست أنها تريد أن تحكي له قصتها مع سامح كاملة وتعرج على حكايتها مع محمد الذي أخفى عنها حقيقة أنه متزوج، عله يفهم سر رفضها لحبه، لكنها لم تفعل. سألته عن دمشق وأحوال أهله وحفل زواج شقيقته في الصيف القادم.

فرغا من تناول العشاء. نهضت من جلستها، حملت الأطباق الفارغة إلى المطبخ. لحق بها سعيد وهو يحمل أطباق الطعام. همهم ضاحكاً: "هل أساعدك أنا شاطر بغسيل الصحون." تضاحكت: "ليس هناك ما يستحق المساعدة. دعك من الصحون. أريد فقط أن أعمل قهوة. أسترخ أنت واستمع إلى شيء من الموسيقى. اختر ما يعجبك." عاد سعيد إلى غرفة الجلوس. تعالت نغمات كونشرتو الفلوت والهارب لموتزارت. ابتسمت وهي تقف أمام الفرن تراقب غلاية القهوة كي لا تفور وتنتشر على الفرن. أحست به يدخل المطبخ. التفتت نحوه بسرعة وعادت تتابع غلاية القهوة. همست: "هذه مقطوعة رائعة. الغريب أن موتزارت قال إنه كتبها بتكليف من صديق رغم أنه لا يحب الفلوت ولا الهارب." همهم سعيد: "ما بيحبهم وهيك، كيف لو بيحبهم؟" تضاحكت عايدة وعادت تراقب غلاية القهوة وتهز راسها مع نغمات الكونشرتو. انتبهت لانعكاس صورة سعيد على زجاج نافذة المطبخ إلى يسارها. كان يقف في وسط المطبخ تفصله عنها مسافة صغيرة وقد عقد ذراعيه خلف ظهره وأحنى قامته باتجاهها، يدور بوجهه ببطء يشم الهواء حولها. تصاعدت فقاعات القهوة في الغلاية. أطفأت الشعلة واستدارت نحوه بسرعة. كان مازال مغمض العينيين. همست: "سعيد." فتح عينيه نظر إليها نظرة من ضبط متلبساً. ابتسمت وخطت خطوة نحوه. تلاحقت أنفاسه. خطت خطوة ثانية نحوه حتى كاد يتلامس جسداهما. رفعت وجهها نحوه. أحنى رأسه نحوها. دار بعينيه في وجهها، مس شفتيها بشفتيه. قبلته. فك ذراعيه من خلف ظهره ولفهما حولها. همس: "عايده، عايدة حبيبة عمري وروحي." ضمها بقوة. خبأت رأسها في صدره حملها بين ذراعيه إلى غرفة الجلوس. استكانت في حضنه. أبعد خصلات شعرها عن وجهها وهمهم بصوت مرتجف: "عايده أنا." وضعت سبابتها

على شفتيه وهمست: "هس." قبلها بادلته قبلته. ملأ الغرفة تناغم الفلوت والهارب في الكونشرتو الجميل.

تناهى إليها صوت آذان الفجر يتردد من المساجد القريبة. سيبدأ النهار وهي لم يغمض لها جفن. قامت من فراشها سارت نحو باب الشرفة فتحت الستارة. رأته ينساب متلألئاً في عتمة الفجر. عادت إلى فراشها. تكورت على نفسها وأغلقت عينيها. كانت تلك واحدة من أسعد فترات حياتها، ملأها سعيد بحبه وحديثه واهتمامه، واحتلت أشياؤه أركاناً في شقتها. كان يتعمد أن يترك عندها بعض كتبه وملابسه. رأته يوماً متربعاً على الأرض أمام خزانة أسطواناتها الموسيقية. سألته: "ماذا تفعل؟" أجاب بكل بساطة: "أحاول أن أضم مجموعة من اسطواناتي إلى اسطواناتك." انحنت عليه، لفت ذراعيها حول رقبته وهي تقول ضاحكة: "ولم هذا الحشر؟" سحبها وأجلسها في حجره وهو يقول: "الحشر معك عيد، عيد يا عايده. أريد أن أكون معك وبين أشيائك وأشاركك كل ما تحبين حتى الخزانة التي تضم اسطواناتك. عندك مانع؟"

كان يغرقها بهدايا صغيرة تسعدها، كأن يشتري لها الحرف الأول من اسمها من أحد مزادات الحلي القديمة لتعلقه في سلسلة مفاتيحها، أو يبحث عن إصدار جديد لقطعة موسيقية تحبها، أو يدعوها لحضور مسرحية لكاتب أو ممثل يعجبها، أو يفاجئها برحلة سريعة إلى باريس. كان أحياناً يضمها إلى صدره بقوة ويهمس: "ليتني أستطيع أن أضعك هنا في صدري بين ضلوعي لتظلي معي أحملك حيث أكون." حتى خلافاتهما كانت كفقاعات الصابون، فقد كان يعرف متى يقول ما يريد ومتى يصمت. وكانت هي لا تطيق أن تراه متألماً أو غاضباً فينتهي الخلاف بقبل وعناق وعشاء على ضوء الشموع. كل أصحابها المقربين أحبوه ورحبوا بوجوده بينهم خاصة نوال وعبود، صارا يدعوانه باستمرار إلى بيتهم ويستمتعان بصحبته.

في إحدى الأماسي، ذهبا لحضور إحدى حفلاتهما. دخلت كعادتها تساعد نوال في إعداد مائدة العشاء. كانت نوال تضع اللمسات الأخيرة على طبق كبير من التبوله. جلست عايده على كرسي المطبخ قبالتها. تأملتها صديقتها لحظة وهمست: "عايده، يبدو أننا سنعود لبيروت. دار النشر التي يعمل فيها عبود ستعود للعمل في بيروت بعد أن استقرت الأوضاع." اتسعت عينا عايده: "متى؟ هكذا بلا مقدمات؟" هزت نوال رأسها: "نعم كل شيء حدث بسرعة غريبة، وإن لم نذهب سيخسر عبود عمله." همهمت عايده: "حبيبتي سأفتقدكما لندن ستصبح موحشة بدونكما." تضاحكت نوال: "لا أظن لهذه الدرجة. الآن لديك سعيد." ضربتها عايده على يدها ممازحة: "رغم ذلك سافتقدك يا ست نوال. يعليكي شو رح اشتقلك." دارت نوال حول الطاولة بينهما، عانقتها وهي تهمهم ضاحكة: "حبيبتي ستزوريني وأزورك. رح اشتقلك يا مضروبه واشتاق للندن. اعتدت الحياة في هذه المدينة التي أحبها. أتصدقين أنني أشعر أن علي أن أعتاد من جديد الحياة في بيروت المدينة التي ولدت فيها. صرت لا أشعر بالانتماء إليها."

تضاحكت عايدها: "طبعاً لأن الحياة في الغربة أو المهجر كما يسمونه تغير الكثير فينا، وتجعلنا مزيجاً من حضارتين، نظل نأكل طعامنا ونتحدث بلغتنا ونستمع لموسيقانا، رغم أننا في دواخلنا أصبحنا مختلفين. وحين نعود للأوطان علينا أن نبحث عما تركنا وراءنا قبل سنين." هزت نوال رأسها موافقة. عادت عايده تقول: "كم سأفتقدك يا نوال وكل ما اعتدت في بيتك الجميل هذا من فرح ومسرة ولقاء بالأصدقاء." همست نوال: "حبيبتي. المهم أنك سعيدة يا عايده أستطيع أن أستشعر سعادتك. لم لا تتزوجيه؟"

عادت عايدة تجلس على الكرسي المقابل لنوال. همهمت: "لا تظلي تسأليني نفس السؤال. قلت لك هو يعرض عليَّ ذلك باستمرار وأنا أرفض. لا أستطيع يا نوال لا أستطيع أن أتزوجه. فرق العمر بيننا كبير يا نوال كبير جداً." صاحت نوال: "لا مش كبير، بعدين دخلك، ليش الرجال بيتجوزوا بنات أصغر منهم بعشرة وعشرين سنة وما حدا بيقول شيء؟" تضاحكت عايده: "يا نوال يا حبيبتي افهمي، أنا أحب سعيد وأعرف أنه يحبني، لذلك أخاف عليه وأخاف منه، أخاف أن يحدث ما يفرق بيننا." أسرعت نوال تقول: "لا تفكري هكذا لم هذه النظرة المتشائمة؟" همهمت عايده: "ليس تشاؤماً بل واقعية، لإن حبنا لن يقاوم الظروف الصعبة ولا يصلح للزواج." تأملتها نوال بصمت. كان في عيني عايدة حزن حقيقي. همست نوال بحنان: "حبيبتي عايده، اتركي الأمور تسير كما تشاء لها الظروف واستمتعي بما لديك الآن. كل شئ له زمن هذه حقيقة عليك أن تقبليها وأنت الآن في زمن الحب فتمتعي به يا عايده." همهمت عايده: "أتعرفين يا نوال، رغم فشلي في الحب في الماضي أنا لم أعرف معنى انتهاء زمن الحب. سامح كان يدّعي أنه يحبني حتى وهو يضربني، ومحمد لم يتخل عن فكرة الزواج مني أنا التي رفضته." قربت نوال وجهها من وجه عايده وهمست: "هذا يعني أنك محظوظة. ثم لا تنسي أن هناك من يقول إنه من الأفضل أن تحب وتخسر على أن لا تحب على الإطلاق." تضاحكت عايده: "أوه تظلين ترددين هذه المقولة من قصيدة الفرد لورد تنسون." همهمت نوال: "لأنها تعجبني. إذاً تمتعي بحبك وخلينا نكمل تحضير السفرة الضيوف بيكونوا جاعوا."

وليده، هي الاخرى فرحت بوجود سعيد في حياة عايده ولم تخف إعجابها به مذ التقته أول مرة حين دعتهما إلى العشاء في بيتها. يومها قالت لعايده: "والله وعرفت تختاري يا ملعونة". في إحدى الأماسي جاءت تزورهم. قبَّل سعيد يدها مرحباً وهو يقول: "أهلاً أهلاً يا وليده يا استاذة استاذتي." تأملته وليده بعينيها الواسعتين، لفت ذراعها حول رقبته وجذبته نحوها وقبلت خده: "أهلاً يا سعيد صبحي يا من جلب السعادة إلى حياة صديقتي." سكب سعيد بعض النبيذ في الكؤوس. رفعت وليده كأسها وهي تقول: "في صحة الحب الذي يبني الحياة ويجملّها." رشفت

من كأسها. وضعته على الطاولة الصغيرة أمامها وهي تقول: "انظرا كيف صارت حياتكما أكثر جمالاً برافو أنا سعيدة جداً بكما." همهم سعيد وهو يدور بعينيه في وجه عايده التي جلست قربه تبتسم بصمت: "الحقيقة لم يكن ذلك سهلاً يا وليده. لم يكن سهلاً أبداً. تعبت وحفيت قدمي حتى أستطيع أن أقنعها أن ترضى بي." تضاحكت وليده:"لا يا عزيزي، أنت لم تقنعها. الحياة فيها أوان، أوان لكل شئ، يأتي متى شاء، متى آن. عايده أحبتك حين آن أوان الحب في حياتها." همهم سعيد: "في صحتك يا ست الكل وصحة آوان الحب وصحة حبيبتي عايده."

بعد العشاء أصر سعيد أن يعد القهوة بنفسه للسيدتين الجميلتين. همهمت وليده وهي تصلح عباءتها السوداء المطرزة بخيوط الفضة حول جسمها: "هذا هو الرجل الذي بحثت عنه طوال عمرك يا عايده وهران، هذا هو بكل تفاصيله." أشعلت سيجارة. نفثت دخانها وراحت تتأمل عايده باسمة: "حين التقيتك لأول مرة، كنت فتاة صغيرة خائفة تحاول أن تجد طريقها. اليوم أنت امرأة بكل ما في الكلمة من معنى، إمراة جميلة واعية تعيش قصة حب جميلة." همست عايده: "حين التقيتني لأول مرة، كنت أعيش صدمة فشل الحب الأول. اليوم أعرف أنني أعيش حباً لا يشبه كل ما عرفت من حب. فرغم فارق السن بيننا، أشعر أنني وجدت الإنسان الذي حلمت به في صبايا المبكر، وجدت الحب الذي يخاطب القلب والعقل والجسد." قربت وليده وجهها منها وهمست: "لأن سعيد يحبك حباً لا يحسنه إلا قلة من الرجال. ألم تلاحظي أن في عينيه، رغم خفة روحه ووسامته، حزن عجيب؟" هتفت عايده مأخوذة الأنفاس: "أنت العجيبة يا وليده، تلاحظين كل شيء. سألت نفسي هذا السؤال مراراً ولم أجد له جواباً. بل تشجعت مرة وسألته عن سر حزن عينيه، تضاحك وهو يقول، يمكن وجع يتراكم في العين بدلاً أن يصيب الجسم. يومها أحسست أنه هو أيضاً لا يملك جواباً لسؤالي."

سرحت وليده بعينيها، أزاحت خصلة من شعرها عن جبينها، وهي تقول: "هذا حزن لا ترينه إلا في عيون الرجال الأقوياء الذين يضعفون لك رغم قوتهم، ويظلون يبحثون عن شيء يعرفون أنهم يريدونه ولا يجدونه، ويطول بحثهم. سعيد، يا عزيزتي ظلّ عمراً يبحث عنك، وحين وجدك، أحبك. سعيد كان سيحبك حتى لو كنت أقل جمالاً وجاذبية، وسعيد سيظل يحبك مهما حدث لأنه رجل يحسن الحب يا عايدة، سعيد يحسن الحب." همست عايده محاذرة أن يسمعها سعيد: "ألن يبحث يوماً عن امرأة أصغر مني وأكثر شباباً؟" قربت وليده وجهها من عايده: "لا لن يفعل. لن يفعل. اسمعي، إن كنت لا تستطيعين أن تفهمي لم أحبك، فمن الأفضل لك أن تتركيه." صاحت عايده ضاحكة: " طبعاً أفهم لم أحبني، هو نفس السبب الذي جعلني أحبه، لكن ذلك لا يعني أن علي أن أتناسى مخاوفي من أن أفقده. لا تنسي أن كل تجاربي السابقة في الحب

انتهت بفقدان من أحببت. الآن وأنا في هذه السن أخاف أن أصبح يوماً امرأة لا تصلح للحب؟" همست وليده بشيء من العصبية: "ما هذا الكلام؟ المرأة الذكية الجميلة لا تفقد أبداً صلاحيتها للحب يا عايده وهران. قد تفقد رغبتها في الحب ولكن ليس صلاحيتها له."

لفهما الصمت. همست عايده: "سعيد بالنسبة لي يا وليده فصل جديد أضيف لحياتي، فصل جديد فريد لا يشبه كل ما عرفته قبله من فصول". التمعت عينا وليدة: "تمتعي إذاً بفصلك الجديد هذا. أنت يا عزيزتي محظوظة فهو فصل لا يحصل عليه إلا من يبتسم لهم الحظ."

في ذلك العام تخلى عاطف عن الالتحاق بوفد القسم العربي، الذي يشارك كل عام في معرض الكتاب في القاهرة. قرار أثار الكثير من الدهشة خاصة وأنه أوكل قيادة الفريق لشخص كان يعتبر منافساً حقيقياً رغم ما بينهما من صداقة معلنة. فالصداقة في القسم العربي، لها مسميات لا يتم الإفصاح عنها، أكثر دقة في وصف حقيقة ما يجري بين زملاء المهنة الواحدة. فقد كان معرض الكتاب في القاهرة فرصة ثمينة للقسم العربي بهيئة الإذاعة البريطانية لتسويق مطبوعات البي بي سي الصوتية، كدروس تعليم اللغة الإنكليزية بالراديو، والمطبوعات الورقية وأهمها مجلة هنا لندن، التي تصدر باسم القسم العربي، وتعرض على زوار المعرض الذين يتوافدون كل عام على جناح القسم العربي. بعض الزوار كانوا يأتون لشراء ما يقدرون على شرائه من أشرطة مسجلة ومطبوعات، آخرون كانوا يحبون الحصول على الهدايا المجانية، شعار البي بي سي وصور لمبنى بوش هاوس، وأقلام وقبعات ورقية عليها أرقام الموجات ومواعيد البرامج الإخبارية. والعديد من الزوار كانوا يأتون للتعرّف على أصحاب الأصوات التي اعتادوا سماعها وهي تقرأ نشرات الأخبار أو تقدم البرامج المختلفة ممن سيتواجدون في جناح القسم العربي.

كان سعيد ضمن قائمة الزملاء المشاركين في المعرض. قالت له عايدة بنبرة جادة: "سعيد نحن سنكون مجرد زملاء أمام الجميع أرجوك يجب أن نحرص على ذلك." قبّلها وهو يقول: "حاضر يا افندم." سافرت إلى القاهرة معه برفقة زميل التحق بالعمل حديثاً على نفس الطائرة، بعد أن سبقتهم مجموعة أخرى من الزملاء والزميلات المسؤولين عن إعداد الجناح. في الفندق اعتذر موظف الحجوزات لعدم توفر ثلاث غرف تطل على النيل بل غرفتين فقط. تبرع الزميل الجديد أن يأخذ الغرفة التي لا تطل على النيل. قال إنه يفضل الهدوء في الجانب الآخر. شكرته على لطفه، حملت مفتاحها وصعدت إلى غرفتها.

فتحت باب الشرفة الصغيرة المطلة على النيل، لتؤدي له تحيتها المعتادة كلما التقته، "تحفة ومتصورة في صفحتك يا جميل." فجأة سمعت طرقاً على الباب. دخلت الغرفة مسرعة. تكرر الطرق. فتحت باب غرفتها، لم تجد أحداً بالباب. عاد الطرق يتكرر. كان على الباب الذي يوصل غرفتها بالغرفة المجاورة. وقفت مذهولة. تكرر الطرق. سمعت صوت سعيد يهمس من خلف الباب: "عايده افتحي الباب." فتحت الباب. رأت سعيد يقف أمامها ضاحكاً، وهو يخبرها أن غرفتها ملاصقة لغرفته وهناك باب يربط بين الغرفتين. مد ذراعيه نحوها وهو يقول: "تعالي إلى غرفتي." تلفتت حولها وهي واقفة على حدود الباب الفاصل بين الغرفتين: "يقولون هناك كاميرات تراقب الغرف في فنادق القاهرة." تضاحك وهو يجرها إلى وسط غرفته، ضمها إليه

وقبلها. بادلته قبلته. فجأة أدار وجهها نحو باب الغرفة وألصق خده بخدها وهمس: "ابتسمي يا حبيبتي، ابتسمي للكاميرا الخفية."

كانت أياماً حلوة تلك التي عاشاها في القاهرة تختلف عن كل رحلاتهما معاً إلى باريس وروما. كان في القاهرة سحر يلفهما، العمل في المعرض وحضور الندوات الثقافية التي تقام على هامش نشاطاته، ثم الخروج للعشاء مع الزملاء والزميلات إلى حي الحسين أو المطاعم العائمة على النيل. في إحدى الأماسي بعد عشاء في الفندق مع بعض ضيوف البي بي سي قالت له حين صعدا إلى غرفتيهما: "الناس ما زالت تتمشى أو تجلس على الكورنيش. لم لا نفعل مثلهم؟" ضمها بقوة: "أنا والنيل والليل ملكك يا عايده. ولكن ماذا سنقول إن صادفنا بعض الزملاء والزميلات؟" همهمت: "ندعوهم لمرافقتنا." هبطا إلى قاعة الاستقبال، كانت خالية من كل من يعرفون. خرجا من الفندق، عبرا الشارع إلى الجهة الأخرى، كورنيش النيل. سارا معاً قرب السياج الحديدي الذي ينتشر عليه باعة السميط والجبنة والترمس والكعك و"تسالي يا لب." أحست أن حولها كل ما تحب وأن العالم كله بكل ما فيه ملكها وحدها. تأملت النيل الذي ينساب بهدوء وكبرياء. هذا الذي تقول إن لها حصة فيه تأخذها كلما التقته. همست وقد تهدج صوتها: "أتعرف يا سعيد، كوني فلسطينية، بلا وطن أعود له، جعلني أشعر أن لي حصة في كل مدينة عربية آخذها حين أزورها. شعرت بذلك في دمشق وأشعر به كلما زرت القاهرة." همهم: "حبيبتي يا عايده."

لفهما الصمت. فجأة أمسك بيدها وهو يقول مقلداً اللهجة المصرية: "ما تيجي يا حبيبتي أفسحك في مركب عالنيل." قبل أن تجيبه، رأت أمامها رجلاً يهرع نحوهما وهو يقول: "مركب يا بيه؟ حضرتك اتفضل من هنا. معانا أحلى مركب عشان الست هانم. أتفضلي يا هانم." قبل أن تستوعب ما يحدث حولها، وجدت نفسها في مركب على النيل في ليل القاهرة الجميل. سمعت صوت الموج وهو يغازل جوانب المركب متمسحاً بها. تذكرت أغنية عبد الوهاب التي كان أبوها يرددها، إيمتا الزمان يسمح يا جميل واسهر معاك على شط النيل. ها قد سمح الزمان. أحست بسعادة غامرة تملأ كيانها. مد سعيد يده في غفلة من المراكبي وقبل يدها. دندنت وهي تضغط على يده: "أنا وحبيبي يا نيل نلنا أمانينا، مطرح ما يرسي الهوا ترسي مراسينا." همس: "الله يا ست. الله يا سومه."

في اليوم التالي وقفت تتحدث إلى زوار جناح الإذاعة في المعرض. لمحت رجلاً يقف منزوياً يستمع لما تقوله للزوار وقد أحنى رأسه وراح ينظر إلى الأرض أمامه. أنهت حديثها والتفتت إليه

وهي تقول بأدب جم: "أهلاً وسهلاً. أكيد حضرتك من مستمعينا الأكارم." ظل رأسه على انحنائه وهمس: "عايده وهران، مدام عايده وهران، صوتك هو صوتك لا يتغير بالميكروفون أو بدونه." نظر إليها نظرة حييه وهمس: "أنا مستمع مزمن يا مدام عايده، أنا من جمهورك." همهمت بابتسامة عريضة: "أهلا وسهلا بك. أشكر لك استماعك." رفع رأسه نحوها وهو يقول بحماسة: "جئت فقط لأحيك. لأقول لك كم يسعدني سماع صوتك والاستماع لبرامجك. لاحظي تعلمت منك الفرق بين السماع والاستماع فقد تحدثت عنه في أحد برامجك." ملأها إحساس بالخجل الشديد أمام لطف وتواضع هذا الرجل. راح يحدثها عن رأيه في بعض البرامج ويحملها السلام لبعض زملائها الذين يحب الاستماع لهم. ثم شكرها وسار مبتعداً. لاحقته بعينيها. هذه هي المكافأة الحقيقية لكل ما تفعل، هذه الجائزة لحرصها على تقديم أفضل ما لديها، وهذا هو الدليل على أن الجمهور يقدر الجيد وأن تبرير تقديم التافه بحجة أن "الجمهور عايز كده" غير صحيح.

جاء وقت رحيل عبد المحسن ونوال من لندن. ذهبت تودعهما. لم يكن الوداع المعتاد الذي يسبق الإجازات كما اعتادت، بل وداعاً حقيقياً، وداع من سيغادر لندن ليستقر في بيروت، ويغلق باب الشقة التي شهدت لقاءاتهم وفرحهم لسنين. انتقلت أعمال دار النشر التي يعمل فيها عبد المحسن، كما قالت نوال وعليهما أن يعودا للاستقرار في بيروت. أحزنها أن ترى المكان الذي اعتادت أن يرحب بها بين جمع الاصدقاء، مليئاً بالصناديق وحقائب السفر المنتفخة. همهمت: "معقول؟ لا أستطيع أن أصدق أنكما ستذهبان وتتركاني وحدي في لندن. أنتما أهلي." همهمت نوال: "حبيبتي ونحن سنفقدك ولكن ماذا نفعل. هذا هو واقع حالنا. جئنا هرباً من نار الحرب في بيروت والآن، انتهت الحرب وبدأ الناس يعودون للبيوت التي هجروا لسنين." همست عايدة: "المشكلة أنني لا أستطيع أن أتخيل لندن بدونك. كم ستكون موحشة." صاح عبد المحسن وهو يقف عند باب الغرفة: "بدونها هي بس؟ شو يا عمي أنا لأ؟" أسرعت عايده نحوه ضمته وقبلته: "ولو، أنت الأصل يا عبود."

دار الحديث حول الحياة من جديد في بيروت. أبدت نوال مخاوفها من أن تشعر بالغربة في الوطن بعد عشرين عاماً في المنفى، وتشعر أنها لا تنتمي للوطن الذي ولدت وتربت فيه. همهمت عايده: "هذا ما يسميه البعض الألينة مستعيرين التعبير الإنكليزي. هذه المشكلة الأزلية التي عالجها الأدباء والمفكرون وأشبعوها نقاشاً. طبعاً ستشعرين بها بعد أن غبت عن وطنك كل هذه السنين. أنت الآن إنسان مختلف في أمور كثيرة." صاحت نوال: "مختلف تماماً يا عايده. المشكلة أننا حين جئنا كنا مانزال شباباً وتأقلمنا بسرعة مع عالمنا الجديد. الآن كبرنا ولن نحسن التغيير والتأقلم من جديد. سنصادف نفس المشكلة التي واجهتنا حين جئنا إلى بريطانيا، وإلا استعصى علينا العيش في البلد الذي ولدنا فيه." تضاحك عبود: "علينا أن نتأقلم من جديد أو بعبارة أخرى نتخلص من بعض ما تأقلمناه في لندن عبر السنين. أخذنا أشياء وتخلينا عن أخرى وصرنا خلطة عجيبة مما توارثناه وما اكتسبناه." صاحت نوال ضاحكة: "لذلك يطلقون علينا اسم المغتربين ليضعونا في خانة منفصلة عن بقية مواطني البلد. والآن علينا أن نكون مغتربين عن غربتنا."

تأملتهما عايده بصمت. هذا بالضبط ما حدث لها حين جاءت إلى لندن من بغداد قبل أكثر من عشرين عاماً. أدركت من البداية أن عليها أن تتغير او أن التغير سيتسلل إلى حياتها رغم أنفها. لذلك عاهدت نفسها أن تتغير بمقدار وتبقي على ما عندها بمقدار كي لا تتحول إلى مسخ أضاع ما له وما عليه. الآن، لو عادت يوماً للعيش في مدينة عربية عليها أن تتغير من جديد بمقدار وتبقي ما اكتسبته بمقدار. لا شك أن ذلك سيكون صعباً في البداية لكنها ستعتاده

كما فعلت من قبل. انتبهت على عبد المحسن يقول: "كل شئ أوله صعب لكننا بالتأكيد سنعتاد حياتنا الجديدة ويجب أن لا ننسى أنها الحياة التي نشأنا عليها. المهم شو يا عايده؟ شو رح تعملي بدوننا؟" همهمت عايده: "سأبكي طويلاً وأبحث عن صدر حنون ألوذ به لأشكو الفراق." تعالى ضحك عبد المحسن. صاحت به عايده: "لا تزد همي. طبعاً ستتركون وحشة كبيرة في حياتي، فجوة لن يسدها أحد." ابتسم ابتسامة خبيثة: "ما رأيك أن لدي من يسد هذه الفجوة وينسيك عبد المحسن ونوال وأولادنا وكل شيء." نظرت عايده إلى نوال. همهمت نوال: "البركة بسعيد." صاح عبد المحسن: "وسينسيك حتى سعيد." تضاحكت عايده: "يا سلام، ومن هو هذا الساحر العجيب؟" تنحنح عبد المحسن وراح يعبث بمسبحته كعادته حين يبحث عن الكلمات. جاء صوته هادئاً: "سالم أبو الفضل." تضاحكت عايده وهمهمت: "يا لطيف. كتّر ألف خيرك."

عاد عبد المحسن يقول بكل جدية: "سالم أبو الفضل زارني قبل يومين وخطبك مني." صرخت عايده: "شو يا عبود؟" أسرع يقول: "والله العظيم هذا ما حدث. جاء إلى مكتبي وقال لي، يا عبد المحسن قبل ما تسافر بدي منك طلب. أنا معجب بالسيده عايده وأتمنى أن تقبلني زوجاً. وقعد يحكى لي عن أملاكه وأراضيه في الضيعة وأنه لم يعد مسؤولاً عن أحد سوى أمه في لبنان ويبدو أن أحواله المادية ..." قاطعته عايده: "عبد المحسن ارحمني. إن كنت تمزح فهذا مزاح ثقيل لا أحبه وإن كنت جاداً فاستعد لدخول معركة حقيقية." ضحك عبد المحسن وتسارعت حركة يده على المسبحة وقال بصوت هادئ: "أنا لا امزح، وحياتك عم إحكي جد. الرجل كلفني أن أنقل لك رسالته وأكون واسطة خير بينكما قبل أن أغادر إلى بيروت، وما على الرسول إلا البلاغ."

فغرت عايده فاها غير مصدقة. التفتت إلى نوال مستنجدة: "نوال، نوال هل تصدقين أذنك؟ هل سمعت ما يقوله زوجك؟" همست نوال: "ماذا قلتَ له يا عبود؟" أسرع عبود يقول: "شو بَدي قلّو؟ قلتُ سأسأل صاحبة الشأن وأرد لك الجواب." صاحت عايده: "يا سلام، يعني أتقنت الدور. لمَ لم تقل له إني مرتبطة." سادت لحظة صمت. كان عبد المحسن يعبث بحبات مسبحته مطرقاً صامتاً. همهم بصوت خفيض وهو يتابع حبات مسبحته: "هل تستطيعين أن تري مستقبلك مع سعيد صبحي؟ سالم يريدك زوجة." تحشرج صوت عايده وهي تقول: "سالم أبو الفضل لا يعدو كونه مزحة، نكتة عايشناها منذ سنوات. ظننت أنك تدرك ذلك. أنظر إليه يتوسط عندك، يخاف حتى أن يواجهني. إسمع يا عبد المحسن، حين طلبت مني قبل سنوات أن ابتعد عن محمد لأنه متزوج، فعلت لأحمي أسرته وأحمي نفسي. الآن اختلفت الأمور، وصلت

نهاية المطاف. أنا امرأة في بداية الخمسين من عمري، ليس أمامي خيارات كثيرة سوى ما أضعه أنا أمام نفسي. وقد اخترت."

لفهم صمت ثقيل. همست نوال: "عايده، أرجوك اهدئي." همهمت عايده: "ظننت أنكما تحبان سعيد. إسمع يا عبد المحسن، أنت من أعز الناس عندي وتعرفني خير معرفة، تعرف ماضي حياتي من ألفها إلى يائها، وتفهم أن من تفتح قلبي على حبه في سني الصبا المبكر بعثر كل أحلامي، ومن أحببت في أواسط العمر خيب أملي." صاحت نوال: "كفى. خلص يا عايده." قامت من مكانها، ضمت عايده وهي تقول: "إهدأي يا عايده أنا قلت لعبود أنك ستغضبين من هذا الكلام لكنه أصر على ممازحتك." أبعدت عايده نفسها عن نوال: "ماذا؟ أتسمين هذا مزاحاً؟" صاح عبود: "لا يا عايده ليس مزاحاً. الدكتور أبو الفضل فعلاً خطبك مني بكل جدية وعليَّ أن أبلغك بذلك للأمانة، وأوصل لك رسالته. أنا آسف إن كنت أغضبتك يا عايده. أنت تعرفين غلاوتك عندي ولكن كان عليَّ أن أوصل رسالته، وقد فعلت."

تأملته عايده بصمت. همهمت نوال: "حبيبتي عايده لا تغضبي، والله عبود لا يقصد أن يزعلك. تعرفين كم يحبك." تضاحك عبود وهو يناولها كوباً من الماء: "خلص امسحيها بلحيتي. يسلملي الزعلان." كان يقف أمامها كطفل صغير. همست: "قل للدكتور سالم أبو الفضل إن عايده وهران مرتبطة بعلاقة حب لا يمكن أن تستبدلها بشيء. قل له إنها مع رجل يصغرها بعشر سنين لأنه كان عليها أن تنتظر حتى يصنعونه لها، تماماً كما تريد كما يناسبها ويرضيها. هل فهمت يا عبود؟" ضمها عبد المحسن وقبل رأسها: " أنا آسف يا عايده. حقك علي يا ست الستات."

أهم أحداث حياتها في تلك الفترة كانت زيارتها لفلسطين، بعد أن جاءت شقيقتها سميه مع زوجها وابنيهما من الكويت التي عملا فيها لسنين، للعيش والعمل في غزة بعد دخول السلطة الفلسطينية إليها مثل العديد من الكفاءات الفلسطينية التي دخلت غزة لتساهم في بناء الدولة الجديدة التي كانت تعد بالكثير. فلسطينيون جاؤا يدفعهم حماسهم ورغبتهم في أن يكون لهم دور في بناء دولتهم الجديدة وتقديم ما لديهم من خبرة وعلم لتحقيق ذلك. اتصلت بها شقيقتها وراحت ترجوها أن تأتي لزيارتهم في شقتهم المطلة على البحر. صاحت عبر التلفون: "تعالي يا عايده شوفي فلسطين شو حلوة." ترددت في البداية. شجعها سعيد على زيارة الأرض التي ارتبطت بها عن بعد، الأرض التي لازالت تسكن عالم الخيال والحكايات وتثير شجن والديها.

قدمت طلب إجازة لعشرة أيام أوضحت فيه وجهتها كما هو متعارف عليه. في اليوم التالي استدعاها رئيس القسم العربي إلى مكتبه وعرض عليها أن تجري خلال إجازتها بعض المقابلات وتبعث بتقريرين عن زوايا مهمة للحياة في غزة بعد دخول السلطة الفلسطينية إليها، مقابل أن يمنحها تذكرة سفر مجانية ومخصصات السفر لأربعة أيام عمل لن تحسب من إجازتها. قبلت عرضه، لأنها كانت تريد أن تعمل في فلسطين، تريد أن تجري مقابلات مع المسؤولين وتنقل للمستمعين جوانب من حياة أهلها. سعيد شجعها على خوض هذه التجربة التي اعتبرها فرصة العمر، أن تزور فلسطين وتنقل بخبرتها مشاهداتها وتبحث في تفاصيلها.

وجدت نفسها تحكي له عن صيف عام سبعة وستين. كانت قد أنهت السنة الثانية من دراستها الجامعية، ثم بدأت الحرب في الخامس من حزيران. كان الراديو المصدر الوحيد لسماع ومتابعة مجريات تلك الحرب. في الأيام الأولى كانت الأخبار تؤكد أننا منتصرون، نسقط الطائرات ونغرق الغواصات ونقف على أعتاب المدن الفلسطينية، يافا وحيفا وعكا. كانت أمها حين تسمع ما يقوله المذيع المتحمس تهمهم: "خلص بكرة بنرجع على عكا وبنقعد على الشط جنب السور." ثم تضيف بحماسة شديدة، "سور عكا يا بنات استعصى على كل الفاتحين، نابليون بونابارت رجع خايب، ما قدر يدخل عكا. عشان هيك، أهل عكا بيتباهوا بسورها اللي بيحميها حتى من موج البحر وبيقولوا متحديين الصعاب التي تواجههم مثلهم الشهير، يا خوف عكا من هدير البحر." صاح سعيد: "الله الله يا عايده ما أجمل ذلك. طبعاً يا حبيبتي كلنا يعرف عكا وسورها وتاريخها وهناك مثل يقال للسخرية ممن يبالغ في وصف منجزه، كأنه فتح عكا." تنهدت بعمق: "آه يا سعيد أنت كنت وقتها لاتزال صبياً، لا يدرك ما يحدث. أنا أذكر كم الحزن الهائل الذي خيم علينا حين خسرنا الحرب. لم نر عكا ولا يافا ولا حيفا، بل خسرنا نابلس ورام الله والخليل والقدس والجولان وسيناء وأسمينا كل ذلك نكسة. لن أنس حزن أبي ودموعه التي كنت أراها

لأول مرة وهو يجلس قرب الراديو يستمع لأنباء نكستنا بعد نكبتنا." همهم سعيد: "لذلك يجب أن تذهبي وتتعرفي على فلسطين وتستمتعي بكل لحظة هناك.

تأملها لحظة وعاد يقول باسماً: "على فكرة أنا كنت في الحادية عشرة وأذكر تماماً الإحساس العميق بخيبة الأمل من قادة ظننا أنهم سيحققون الأمال التي طال انتظارها. مع نهاية الستينيات وبداية السبعينيات، أي حين أصبحت على وشك أن أدخل الجامعة، بدأت أقرأ وأستوعب أدب نقد هذه النكسة وأتابع شعر المقاومة لكبار شعراء فلسطين." ابتسمت عايده. هكذا هو دائماً يحاول عبور فوارق الزمن بينهما. عاد يقول وهو يلف ذراعه حول كتفيها: "الآن في عام خمسة وتسعين هناك بارقة أمل جديدة لإعادة بناء دولة يعيش فيها الفلسطينيون. اذهبي إلى فلسطين يا عايده اذهبي يا حبيبتي وكوني شاهدة على ما يحدث فيها." همهمت: "بارقة أمل. أرجو أن لا يخيب كما اعتدنا أن تخيب آمالنا."

ذهبت إلى "البلاد" كما يقول الفلسطينيون عن فلسطين التي فقدت اسمها. قبلت عرض رئيس القسم العربي. حزمت جهاز التسجيل الصغير لتجري مقابلات وتحقيقات عن غزة تحت الإدارة الفلسطينية. أحزنها أنها لا تستطيع أن تخاطب المستمعين كفلسطينية تزور بلدها لأول مرة، بل كموظفة وصحفية إذاعية يفترض أن تحافظ على حيادها الكامل ولا تقحم الأمور الشخصية في العمل. تمنت أن تقول لمستمعيها إن فلسطين بالنسبة لها كانت أرض الأحلام، التي سمعت عنها الحكايات من والديها منذ سني الطفولة المبكرة، ثم من خلال ما قرأت وسمعت وشاهدت عن القضية الفلسطينية والشعب الذي هجر من أرضه، لكنها لم تزرها مطلقاً. لم تشم هواءها أو تتدفأ بشمسها أو تذوق ماءها. ولدت فيها ورحلت عنها طفلة صغيرة وظلت تحلم أن تراها. تمنت أن تعرف وقع كلام كهذا على مستمعيها خاصة حين تضيف إنها تستطيع أن تزورها الآن لأنها تحمل جواز سفر بريطاني يتيح لها الدخول كأجنبية إلى أرض الأجداد، وأنها بدونه ما كانت لترى فلسطين.

قلبت الموظفة الشابة في مطار اللد "مطار بن غوريون جواز سفرها. رأت أن محل ولادتها هو مدينة حيفا ومحل إقامتها الدائمية لندن. ابتسمت وهي تقول: "أوه أنت من حيفا؟ لم لا تعيشين فيها." همهمت عايده بكل جدية: "لأنه لا يسمح لي بذلك." اختفت ابتسامة الموظفة وعادت تقلب جواز السفر بين يديها لتكمل لها إجراءات الدخول. ارتمت في حضن شقيقتها التي جاءت لاستقبالها. تهدج صوتها وهي تقبلها: "حبيبتي نحن في فلسطين يا سمية نحن في فلسطين." قبلتها أختها وهي تهمس ضاحكة: "هذه تل أبيب عاصمة إسرائيل يا عايده وهذا مطار بن غوريون." أسرعت عايده تقول: "الأسماء لا تعني شيئاً. سمها ما شئت، ستظل الأرض التي عاش عليها الآباء والأجداد."

جلست في السيارة في الطريق إلى غزة، تراقب كل ما يمر أمامها، لوحات السيارات، علامات الطرق المكتوبة بالعبرية والعربية والإنكليزية، لتستوعب كل تفاصيل البلد الذي ارتبطت به دون أن تراه. وصلوا إلى معبر إيريز على حدود غزة. وجدت نفسها من جديد في مواجهة المسؤول الإسرائيلي. تفحص جواز سفرها البريطاني وهمهم بإنكليزية ثقيلة: "لم جئت لزيارة إسرائيل؟" أسرعت تقول: "جئت لزيارة أهلي وأصدقائي في غزة." ألقى عليها الجندي نظرة فاحصة وطمغ بعصبية بطاقة دخولها الأراضي الفلسطينية. انتابتها رغبة قوية أن تقول له، ما بك؟ أنا خارجة من إسرائيل إلى الأراضي الفلسطينية."

أحبت غزة وبحرها وشوارعها القديمة. صارت فلسطين التي كانت بالنسبة لها حلماً وشعاراً، حقيقة تدوس أرضها وتشم هواءها وتتحدث إلى ناسها. أحست أن الهواء أكثر صفاءً والطعام ألذ والشمس أكثر إشراقاً. زارت مع شقيقتها القدس وعكا، تاهت في فرحة يصعب وصفها وهي تخطو الشوارع القديمة وتلمس الحجارة التي عرفها الاجداد، وتعمق الجذور ومتانة الانتماء رغم البعاد الذي طال من العمر سنيناً كثيرة. صارت فلسطين أكثر واقعية، وأكثر إيلاماً. لم تعد صوراً وشعارات، بل أرض وناس يتحركون يقولون ويتألمون، يرضون ويرفضون، بعيداً عن وهم الحب من على بعد. وجدت نفسها تدرك لأول مرة أننا نمارس شيئاً من الأمومة تجاه الأوطان لنقدر على حبها، ولنتغاضى عن السلبيات وبعض ما قد يصيبنا من خيبات الأمل حين نعود لها بعد غياب.

أجرت لقاءات إذاعية وتحدثت إلى الناس في الشارع والمقهى. وقفت على معبر أيريز مع العمال الذين ينتشرون عليه مع أول خيوط الفجر كل يوم بحثاً عن مقاول يأتي بسيارة "بيك آب" من خارج حدود غزة ليلتقط سواعدهم القوية، ويأخذهم ليعملوا في مشاريع البناء في المدن الإسرائيلية القريبة وربما المستوطنات، ثم يعيدهم في المساء ليعاودوا نفس دورة العمل في صباح اليوم التالي. سألت من قبلوا أن يردوا على أسئلة مذيعة في البي بي سي، لِمَ يبحث العامل الفلسطيني عن رزقه خارج غزة، جاءها الجواب صادماً، لأن المقاولين الذين يبنون غزة يبحثون عن أيدي عاملة رخيصة ولا يدفعون للعمال المهرة ما يدفعه لهم المقاول الإسرائيلي، ولا يوفرون لهم رعاية صحية في حالة حدوث طارئ. ذهبت إلى الصيادين تسأل لم يباع السمك بأسعار مرتفعة في مدينة تمتد سواحلها من شمالها إلى جنوبها؟ لكن الصيادين الذين جلسوا يلعبون الورق ويحتسون الشاي، على الشاطئ قرب مراكبهم الراسية، رفضوا الحديث معها. قالوا لها إن المقابلات لا فائدة منها. أحدهم قال لها وهو يشير إلى رجل يجلس وحيداً قرب الشاطئ: "إن أردت الحديث فاذهبي إلى الريس."

كان رجلاً في خمسينيات العمر، لوحت بشرته الشمس وأضفت عليه مسحة من الجمال والقوة. رفض هو الآخر الحديث معها. ابتسمت وهي تقول: "الكل يقولون إنك الوحيد الذي يمكن أن يتكلم، لإنك الرّيس. ما معنى رّيس، وكيف يصبح الصياد ريساً؟" تأملها لحظة. التمعت عيناه همهم بصوته الخشن: "ما بتعرفي شو يعني ريس؟" ابتسمت: "احكيلي خليني أعرف." بدأ الرجل يحكي. تجمع حولهما الصيادون. سجلت معه حديثاً شارك فيه بقية الصيادين. حكوا همومهم ومعاناتهم وعسف الاحتلال حتى على مراكبهم. قالوا إن ما تم الاتفاق عليه من أميال

بحرية للصيد في أوسلو، لا يطبق، فكيف يصيدون إن كان محظوراً عليهم أن يبحروا في البحر؟ وإن فعلوا تصادر مراكبهم. همهم الريس: "ظلموا غزة وظلمونا وظلموا البحر والسمك."

كان سعيد يتصل بها بين يوم وآخر على هاتف بيت شقيقتها، ليطمئن عليها فتروح تحدثه عما فعلت في يومها وتشعر بدفء ابتسامته عبر الهاتف وهو يهمس بصوته الرائق: "تمتعي بوقتك يا عايده، تمتعي يا حبيبتي. أحبك وأشتاق لك." في أحد الأيام سألتها أختها ضاحكة بعد أن أنهت مكالمة طويلة مع سعيد عن هذا الرجل الذي يتصل بها من لندن: "يبدو أنه مهتم جداً بك وبما تفعلين. أهو مديرك؟" كانتا تجلسان على الشرفة المطلة على الشاطئ. همهمت: "لا يا سمية. مديري لا يتصل بي. يتركني أنجز عملي وحدي. هذا زميل وصديق عزيز." التمعت عينا سمية. قربت وجهها من عايده: "زميل وصديق فقط؟" تضاحكت عايده: "شو بدك أقول؟ طيب رح أقول. لا هو ليس مجرد زميل وصديق. هو حبيبي." هتفت سمية فرحة: "حبيبتي عايده ما أجمل ذلك. هل تفكرين بالزواج من جديد؟" تضاحكت عايده: "أي زواج يا سميّه؟ أنا على أعتاب الخمسين من عمري." صاحت سمية: "ثم ماذا؟ هذا سن مناسب للزواج كي لا تقضي بقية عمرك وحيدة. أنت الآن بحاجة لصديق ورفيق ووليف. أحكيلي عنه." ابتسمت عايده: "ماذا أقول؟ اسمه سعيد، سعيد صبحي من سورية لكني لا أفكر بالزواج منه، مش رح تزبط يا سمية." همهت سميه: "ليش يا عايده ليش يا حبيبتي؟"

كان موج البحر الممتد أمامهما يتسابق نحو الشاطئ ليتكسر في زبد أبيض على الرمل الناعم. همست عايده: "يوم عدت إلى البيت وجسمي مليء بالكدمات لم أحكي لك أي تفاصيل. كنت تقفين صامتة والدموع في عينيك. خفت أن أقول لك إن كل مفاهيم الحب تتلاشى حين يتحول حبيبك الذي يذوب بين أحضانك حباً ورغبة، إلى وحشٍ كاسر، يضربك باليد التي كانت تتمسح بك. خفت عليك من ألمي، خفت أن تتشوه صورة الحب في ذهنك، وتظلي ترددي ما قلته لك في ساعة ألمي وغضبي. أبعدتك عني وصمتُ أمام نظراتك المتوسلة. لم أحك لك يوماً عما حدث لي، وأنت لم تحرجيني. وحين تزوجتِ قبل أن أغادر إلى لندن بعام، حمدت الله أن تجربتي المريرة لم تؤثر على قرارك. لكني الآن، وأنا معك هنا في فلسطين، أشعر أني أستطيع أن أقول ما سكتُّ عنه طوال هذه السنين. عن الألم الذي لا يشبهه ألماً آخر، تشعرينه في قلبك وعظامك وروحك ويظل يخدش إنسانيتك ويستبيح ذاكرتك ويهاجمك في أي لحظة من يومك دون سابق إنذار. حين صفعني لأول مرة شعرت أن عالمي تقلص حتى كاد أن يخنقني. تمنيت في تلك اللحظة أن أموت، أن اختفي، أن أتلاشى، أن أعود إلى رحم أمي كي أتجدد، كي لا يكون قد لمسني ولا أكون قد أحببته يوماً. وعشت بعدها سنين طويلة لا أريد الرجل في حياتي ولا

أطيق أن يلمسني رجل حتى ظننت أنني فقدت رغباتي الحسية إلى الأبد. وحين دق الحب بابي بعد ذلك بأكثر من عشر سنين تعلقت برجل يكبرني في السن، محترم، ناجح، معروف وكأني أبحث عنده عن بر الأمان الذي طال افتقادي له. عندما لمسني لأول مرة فاجأني إحساسي به واستمتاعي بهذا الإحساس وعرفت أني لم أفقد إنسانيتي تماماً وأني مازلت قادرة على الحب، ووافقت على الزواج لأكتشف أنه رجل متزوج وله أبناء في الضفة الغربية."

عادت تنظر إلى البحر أمامها. لفت سميه ذراعها حول كتفي عايده وقبلت خدها. أسندت عايده رأسها على كتف شقيقتها. لفهما صمت هادئ. همهمت عايده: "سعيد هو الرجل الذي انتظرته طويلاً. دخل حياتي خطوة خطوة بجهد وعناء، وبنى حبه في قلبي لبنة لبنة بصبر وتأنٍ. أجمل ما فيه أنه يرضي عندي كل ما عندي." همست سمية: "هذا هو المهم. أرجو أن يعوضك عن كل ما فاتك." اعتدلت عايده في جلستها وهي تقول: "لكنه يصغرني بعشر سنين. لم أخبرك بالحكاية لأني كنت واثقة أنك ستجدين صعوبة في تفهم الموضوع. أنا أيضاً احتجت لبعض الوقت لأتقبل الفكرة. خفت أن يأتي يوم نجد أن علينا أن نفترق. اليوم لم يعد يعنيني ذلك، بل أقول لنفسي كل شيء بأوانه، إن جاء ذاك اليوم، سأغني أغنية التمّ كما تفعل البجعة قبل موتها وأرضى بالوداع، أما الآن فلن أتخلى عن سعادتي." صاحت سمية: "إياك أن تفعلي، أو تسمحي أن تسرق منك هذه السعادة. المهم أنه يحبك استمتعي بحبه وأحبيه قدر ما تستطيعين." تأملتها عايده لحظة مسحت على خدها بحنان وهمهمت: "سأفعل يا سمية، سأفعل. كما أستمتع بهذه اللحظة الجميلة معك ومع بحر غزة الذي لا يشبه بحراً آخر."

بعد عودتها إلى لندن بدأت الأحداث تتسارع بشكل تصعب مواكبته. فقد عاطف مركزه، ركلوه خارج المبنى، كما تقول وليدة ضاحكة حين يتم الاستغناء عن أحد المدراء. لكنه قبل أن يغادر بوش هاوس، حاول أن يثير المشاكل لكل من عملوا معه، حتى هي لم تسلم منه، حكى لبعض الزملاء كيف أنه رأها مع سعيد في مطعم على نهر التيمس "وهات يا رقص وهات يا بوس". كان ذلك قبل سفرها لزيارة شقيقتها يوم دعاها سعيد للعشاء في مطعم على نهر التيمز في منطقة شيلسي. كانت تراقص سعيد ضاحكة حين انتبهت لوجود عاطف في المطعم. همست: "عاطف موجود في المطعم يا سعيد. سينشر الخبر ونصبح حديث القسم العربي." تضاحك سعيد وراح يدور بها بين الراقصين.

انتشر خبر العلاقة بين عايده وسعيد، فقد كان القسم العربي دائماً مرتعاً للشائعات، لأنه صورة مصغرة من كل تناقضات وصراعات العالم العربي الفكرية والدينية والاجتماعية. بدأ الهمس، هل تزوجا في السر؟ أم هي علاقة في الحرام بين امرأة في الخمسين ورجل يصغرها بعشر سنين. البعض أفتى إنها معه كي ترضي ما يصعب إرضاؤه. بل وأصر أصحاب الخبرة والمعرفة منهم على أن النساء صغيرات الحجم شبقات. آخرون رأوا أنها ضحكت عليه واستغلته لأنه كان في البداية ضمن الفريق الذي دربته ففرضت حبها عليه. ناقشهم أصحاب الرأي في أنه هو الذي استغلها، استغل مركزها ومكانتها العملية والاجتماعية وحاول الاستفادة منها كي يصل إلى ما وصل إليه. أحدهم تفتق ذهنه عن فكرة جديدة، سعيد يعاني من عقدة أوديب أي أنه لا يحب النساء في مثل سنه ويبحث عن العجائز. لكن هذه النظرية لم تلق الترحيب، فعايده، رغم فارق السن بينها وبين سعيد، امرأة جميلة يمكن أن تسعد أي رجل، لذلك وقع سعيد في غرامها، وحسدوه على هذه النعمة. البعض لم يعنهم الخبر واكتفوا بالاستماع لما يدور حولهم من كلام وأقاويل، آخرون باركوا هذه العلاقة لأن الزواج ليس الأساس الوحيد للجمع بين الرجل والمرأة، معتمدين فكرة احترام الحرية الشخصية، في حين رأى المتزمتون أن هذه العلاقة خروج عن العرف والتقاليد، واعتبروها زناً وخروجاً عن تعاليم الدين.

تظاهرت عايده أنها لا ترى ولا تسمع شيئاً مما يدور حولها. تركت الأمور تأخذ مجراها، كلام وهمس لبضعة أسابيع لحين ظهور حدث جديد ينسيهم حكايتها ويثير أقاويل جديدة. تساءلت بصمت ماذا كان سيحدث لو علموا أن عاطف الذي نشر الخبر عنها، حاول مراراً أن يعرض عليها حبه. رفضته لأنه لا يشبه ابداً الرجل الذي يمكن أن تحبه، ولأنه مديرها ورجل متزوج. ترى لو رضيت بعرضه، هل كان سينشر في المبنى قصته معها مع قصة سعيد؟ ربما لن يفعل، فهو مديرها وتحرشه بها ليس في صالحه.

لم يجرؤ أحد على مواجهتها، بما يدور حولها إلى أن كان يوم جاءتها زميلة قديمة، تزورها في مكتبها على غير عادتها. جلست تحدثها عن أشياء تافهة. فجأة وجدتها تقول: "إيه يا عايده، صحيح الكلام اللي بيقولوه عنك ده؟" ابتسمت عايده وهي تقول بصوت هادئ: "أي كلام؟" ارتبكت المرأة قليلاً وهمهمت: "أنا عارفة؟ بيقولوا إنك تريدين أن تتزوجي سعيد صبحي. هذا فتى صغير ليس من ثوبك. إنت فين وهو فين." تأملتها لحظة وهمهمت: "اطمئني يا عزيزتي أنا لا أفكر مطلقاً في الزواج، لا من سعيد صبحي ولا من غيره. الفكرة لم ترد في خاطري إطلاقاً، صدقيني." ارتبكت السيدة. عادت تقول وقد رسمت على وجهها ابتسامة كبيرة: "كده؟ أصلي سمعت أنك، يعني، أنك وسعيد صبحي، يعني أنكما ... يوه يا عايده أنتي تعرفين ما أقصد. أسمعي نصيحتي يا حبيبتي ابتعدي عنه أسلم لك وله." تأملتها عايده بابتسامة. تصاعد ارتباك المرأة. قربت عايده وجهها من ضيفتها وهمست: "لماذا أنت مهتمة هكذا بتقديم النصائح لي؟" أسرعت الزميلة تقول متشجعة بفكرة أن عايده وجهت إليها سؤالاً واضحاً: "لا بس لأنه بصراحة، يصغرك كثيراً، ولا أريد أن يتكلم عنك الناس ويقولون إنك مع شاب في سن أولادك." تعالى ضحك عايده: "أوه في سن أولادي؟ زوجك، ألا يكبرك بعشرين سنة، ألست أنت في سن بناته؟ ألم يتزوجك بعد أن طلق امرأته الأولى من أجلك؟ اسمعي يا عزيزتي، لا تقلقي عليَّ فأنا قادرة على الاهتمام بشؤوني، وإن احتجت لنصيحتك فسأطلبها لأنتفع بخبرتك."

في المساء قالت لسعيد: "تعبت، كلام كثير يدور في المبنى." ضمها بحنان وهمس: "عندي حل عظيم، تزوجيني. أرجوك تزوجيني. لم ترفضين الزواج مني؟" همست: "هذا الموضوع انتهينا منه منذ زمن. أنا لم أعد أصلح للزواج يا سعيد افهمني تعبت من تكرار ذلك." تأملها لحظة وهمس: "كيف لم تعودي تصلحين؟ أنت امرأة جميلة ذكية مبدعة، أنتي حبيبتي وستبقين حبيبتي حتى آخر نفس في صدري سواء تزوجتني أم لا أعدك بذلك." تضاحك: "أنا اللي صرت عريس بائر لا أحد يريديني يا ست عايدة يا حلوة."

تقلبت في فراشها من جديد. أحست أنها تعبت من محاولة أن تنام. لقاء سعيد اليوم جعلها تستعيد ذكريات ظنت أنها دفنتها في صندوق رمت به في البحر، لتجد أن البحر أعاد إليها صندوقها كاملاً لم ينقص منه شئ. كل شيء مازال حياً في الذاكرة تذكره بكل تفاصيله وكأنه حدث بالأمس. غياب عاطف عن بوش هاوس، كان بداية لمتغيرات كثيرة متلاحقة، وظهور أفكار جديدة للتطوير والمعاصرة والمواكبة والعولمة، كلمات تشدق بها بعض رؤساء الأقسام وكان ضحيتها البرنامج الإذاعي متقن الصنع. أفتى البعض منهم أن المستمع في عصر الفضائيات وإذاعات الإف إم، يصاب بالملل من الاستماع لبرنامج ثقافي أو فني على مدى نصف ساعة لأنه يريد برامج خفيفة حية تعتمد على الموسيقى السريعة والأخبار المنوعة القصيرة. صارت عايده تشعر بالدوار حين تحضر اجتماعاً موسعاً يقال فيه هذا الكلام. وحين تشاهد على الفضائيات العربية برامج طولها بالساعة لا بأنصافها تدور حول موضوعات لا تمت لواقع العالم العربي بصلة، تلعن في سرها هذا الزمن التافه.

في أحد هذه الاجتماعات الموسعة بدأ الحديث عن إلغاء قسم إعداد البرامج واستبدال كل شئ بالبرامج الإخبارية. دافعت عايده بشدة عن البرنامج الإذاعي وعن الجهد الذي يتطلبه إعداده. لكن عقول الجميع كانت قد أعدت لعصر الإنترنيت، عصر برامج الوجبات السريعة، عصر غياب التفاصيل. لم تعد الرسائل تكتب على ورق جميل ملون في زمن رسائل التكست بأنصاف الكلمات والعربية المكتوبة بحروف إنجليزية. أحزنها أن تجد عالمها الذي أمضت فيه عمراً يتلاشى لأنه صار موضة قديمة لا تناسب العصر. قالت لسعيد مرة: "هل تتخيل بيتك الدمشقي الجميل بلا تفاصيله الصغيرة المنمقة، شبابيكه العالية وأثاثه المميز وأبوابه الخشبية الضخمة؟" همهم: "سيكون مسخاً غريباً. لكن بيتي الدمشقي يا عايده في نظر الكثيرين، مكان قديم بالٍ يجب أن يستبدل بمبنى حديث يلغي كل التفاصيل العتيقة لأنها موضة قديمة." تأملته لحظة وعادت تقول: "أشعر أنني أصبحت بكل أفكاري ورؤيتي للحياة جزءاً من تلك التفاصيل البالية، وفقدت السيطرة على كل ما يجري حولي." ضمها إليه. استكانت في حضنه. همهمت: "كل شيء يتغير بلا مقدمات. أهذا ما يحدث لنا حين نتقدم في السن يا سعيد؟"

ثم جاءها الخبر الذي شل تفكيرها وملأها بحزن لم تعرف له مثيلاً، توفيت وليده الصالح. هكذا بلا مقدمات. قالت لها ابنتها إنها وجدتها ميتة على كرسي المطبخ، بعد أن عادت من التسوق من المحلات القريبة كعادتها. ذهبت لحضور مراسم جنازتها وحدها. رجت سعيد أن لا يرافقها. كان هناك حفنة من الزملاء والزميلات والأصدقاء. بكت طويلاً وهي ترى التابوت الخشبي في الكنيسة القريبة من بيتها. اعتصر قلبها السؤال، كيف ستكون الحياة بدون وليده؟ بدون أحاديثها

وضحكتها ورؤيتها للحياة ودفء صداقتها؟ لم علينا أن نفقد من نحب ونستمر في حياتنا بدونهم؟ حين توفي والدها، أحست باليتم رغم أنها كانت في أربعينيات عمرها. يومها قالت لها وليده وهي تضمها بحنان: "الحزن يصقل الكثير فينا يعلمنا ما لا نجده في الفرح، ويقوينا رغم الألم." اليوم لا تجد في موت وليده ما يمكن أن يصقل شيئاً فيها. موتها وحشة وفراق مؤلم.

في المساء جاء سعيد يحمل باقة ورد بيضاء كبيرة. كانت تجلس متكورة على نفسها بملابسها السوداء. بكت على صدره كطفل صغير. همست وسط دموعها: "لا أستطيع أن أتوقف عن البكاء. ترى هل سيبكي عليَّ أحد هكذا حين أموت؟" خبأها في صدره: "سلامة قلبك يا عايده، بعد الشر عليك يا حبيبتي." استكانت في حضنه. همهمت بصوت مكسور: "مش مهم، عنهم إن شاء الله ما بكيوا، ومن بعدي الطوفان." ابتسم سعيد وراح يهدهدها: "اهدأي يا عايده اهدأي يا حبيبتي أرجوك يكفي بكاء." مسح دموعها بالمنديل الورقي. مسد شعرها وقبل جبينها. همست: "أتعرف يا سعيد أشعر أن شيئاً كالطوفان بدأ يجرفني. يأخذني بعيداً عن كل ما اعتدت. كل شئ حولي يتغير بسرعة عجيبة والمطلوب أن أواكب هذا التغيير فهو أكبر من أن أواجهه، معنى ذلك أن عليَّ أن أقبل به وأتغير أنا أيضاً." أبعدت نفسها عنه. أسندت رأسها على مسند الأريكة وسرحت بعينيها: "المشكلة الحقيقية هي أنني لا أريد أن أتغير يا سعيد. لا أريد. أنا أحب نفسي كما أنا."

بدت كطفلة صغيرة، بعينيها الذابلتين وأنفها المحمر. قرب وجهه منها وهو يقول باسماً:" وأنا أيضاً أحبك كما أنت. بل أحبك لأنك أنت." مس شفتيها المرتجفتين بشفته. همست: "ولكن إن لم أتغير فلا مكان لي في هذا العالم الجديد. إما أن أواكب المتغيرات أو أبتعد." صمتت لحظة وعادت تقول: "وليده الصالح." دارت بعينيها في الغرفة حولها، ترددت قليلاً وعادت تكمل: "وليده الصالح، رحمة الله عليها، عاشت مع زوجها الشاعر الإيرلندي لسنوات في إيطاليا، يخالطان نخبة من الشعراء والأدباء. عزرا باوند كان يكتب قصائده في مطبخ شقتها في روما، والممثل الأيرلندي ريتشارد هاريس كان يسميها "الأميرة البابلية" وها هي تموت وحيدة في مطبخ بيتها على كرسي خشبي." بدأت تنوح من جديد. ضمها سعيد إلى صدره. تكومت في حجره كطفل صغير في حضن أمه وبدأت تنشج. هدهدها وهمهم: "أشعر بلوعتك وحزنك يا حبيبتي أنا أيضاً أحس الوجع تعرفين كم كنت أحبها." أسرعت تقول: "أنا آسفة لأنني طلبت منك ألا ترافقني، خفت أن تتحول جنازة وليده لمادة للحديث عنا."

ضمها بقوة. أغمض عينيه. استحضر وجه وليده وعينيها السوداوين الواسعتين. حين التقاها أول مرة قالت له، أنت محظوظ بعايده. أجابها ضاحكاً، أعرف ذلك يا وليده. قربت وجهها منه وهمست محاذرة أن تسمعها عايده، وهي أيضاً محظوظة بك. لا تنسى ذلك. همس بحنان: "عايده حبيبة قلبي، الموت شيء يقف الإنسان عاجزاً أمامه. وليده عاشت حياة حافلة وستظل في الذاكرة. هي امرأة لا يمكن أن يلفها النسيان." همست وهي ما تزال مختبئه في صدره: "حين دخلتُ مبنى الإذاعة لأول مرة كانت وليده الصالح أحد النجوم الكبار في بوش هاوس. أحبتني منذ اللحظة الأولى، واهتمت بي واحتضنتني. كانت تشعر بالاعتزاز حين تقدمني لزملائها وزميلاتها، تقول بالفم المليان، عايده فلسطينية، لكنها تربت في العراق وصار فيها ما فيها منه. أبعدت نفسها عن حضن سعيد. مسحت دموعها. تأملته لحظة وعادت تقول: "كان في بوش هاوس في ذلك الزمان عدد كبير من المبدعين. نجوم بأسماء لامعة يتداولها الناس في العالم العربي، صناع برامج ومقدمو برامج إخبارية ينتظرها المستمعون. اليوم معظم الموجودين في المكان تائهون يبحثون عن وظيفة إدارية وراتب شهري ضخم ويعيشون وهم أنهم نجوم، متناسين حقيقة مهمة، هي أن النجم الحقيقي لا يشعر بنجوميته، بل يراها في عيون من حوله."

اعتدلت في جلستها وعادت تقول: "كان لدينا زميل عزيز، مات هو الآخر منذ سنوات. كان يحمل شهادة الدكتوراه في الأدب الإنجليزي وكان الجميع ينادونه بالدكتور أو "الدوك". كان رجلاً عميق الفكر إذا تحدث في الأدب والفن قال العجب لكنه كان يصمت تماماً إذا حضر الجلسة أحد الأدعياء المتحذلقين ويطول صمته إن دعاه أحد الموجودين لإبداء رأيه والمشاركة في الحديث ليقول وهو يتلمظ بطريقة ساخرة: "دعكم من كل هذا، ما تيجو نتكلم في النسوان أحسن." فتصرخ فيه وليده صديقة عمره الحميمة، "لا تقل نسوان، قل سيدات. فينفث دخان سيجارته، ويترحم على أمه الصعيدية التي يردد حكمها الذكية عن كل شؤون الحياة. كانت هذه طريقته بالاستهزاء والاستخفاف بأدعياء المعرفة الذين صاروا اليوم يصرون على أنهم نجوم."

كان يتأملها صامتاً وفي عينيه حزن وعلى وجهه ابتسامة. مسدت شعره بحنان: "آسفة يا سعيد. أنا مزعجة اليوم. شكراً على صبرك عليَ وحنانك. لا أعرف ما بي. لكنني أشعر أن كل شئ حولي ينهار وأن الخيوط تتقطع بيني وبين العالم من حولي. حتى عملي لم أعد أحبه، فقدت رغبتي به، لا أريده." همس: "هذا لأنك متعبة وحزينة. لا بأس، قولي ما يحلو لك، أفرغي ما عندك." لفهما صمت هادئ. همست: "أتعرف يا سعيد لا أشعر برغبة في العمل. كرهت العمل وبوش هاوس وكل ما فيه. سآخذ إجازة لبضعة أيام. أحتاج لشئ من الراحة وأريد أن

أخلو لنفسي. أحتاج لأن أكون وحدي لألملم ما ضاع من ذاتي. أنا متعبة يا سعيد متعبة جداً. سامحني."

قامت من جلستها، سارت نحو غرفة نومها، استلقت في فراشها بملابسها وأغمضت عينيها. دخل سعيد الغرفة، اقترب منها، جلس على حافة السرير ولمس جبينها بشفتيه. همست: "أراك غداً." قام من جلسته. تأملها صامتاً. أحكم حولها أغطية السرير، وخرج وأغلق باب الغرفة خلفه.

في كتب التاريخ حكايات كثيرة عن بضعة أيام سبقت الأحداث الكبرى، التي غيرت مصائر البشر. كانت تلك الأيام هي أيامها التاريخية، التي غيرت مجرى حياتها. وجدت نفسها تتخذ قرارات مصيرية وتتحرك بسرعة وكأنها ترسم معالم لوحة جديدة تصنع وحدها كل خطوطها. كان شيئاً خفياً يحركها ويحدد مسار ما تفعل. وجدت نفسها غير راغبة بالعمل. حين زارت طبيبها، قال إنها تعاني من توتر نفسي شديد. أعطاها إجازة مرضية لثلاثة شهور لأن أعصابها متعبة مما يجعلها غير مؤهلة للعمل وغير قادرة على التركيز. قررت أن تقوم برحلة طويلة تزور خلالها أمها التي انتقلت بعد وفاة أبيها للعيش في بيروت. شقيقتها سمية وعدت أن تأتي من غزة ليجتمع شمل الأسرة لبضعة أيام. نوال شجعتها على زيارة بيروت وتغيير الجو. صاحت وهي تكلمها عبر الهاتف: "تعالي يا عايده اشتقنالك كثير."

جلس سعيد يتأملها بصمت. تشاغلت بمتابعة الأخبار على شاشة التلفزيون. جاء صوته هادئاً كعادته وهو يقول: "ثلاثة شهور إجازة. مدة طويلة جداً يا عايده." تمتمت وعيناها تتابعان الشاشة أمامها: "صحيح ولكني فعلاً متعبة يا سعيد." تأملها لحظة وعاد يقول: "هل معنى ذلك أنك ستمضين كل إجازتك في بيروت؟" أسرعت تقول: "لا أدري يا سعيد. المهم أن أبتعد عن بوش هاوس وكل ما فيه. لم أعد أطيق الذهاب إلى ذلك المبنى الذي أمضيت فيه زهرة شبابي وتعلمت فيه الكثير. أحس بالاختناق والغربة فيه." ابتسم سعيد: "أفهم شعورك يا عايده ولكنك لم تجيبي عن سؤالي، ماذا ستفعلين خلال الشهور الثلاثة هذه؟ هل ستقضينها كلها في بيروت؟" تنهدت بعمق: "لا أعرف ماذا سأفعل. المهم أن أسافر، أن أبتعد عن أجواء العمل. أحتاج أن أغير كل ما حولي، وأكسر كل قيودي."

كانا يجلسان على طرفي الكنبة وبينهما فراغ كبير. تضاحك: "أرجو أن لا أكون محسوباً على القيود التي تريدين كسرها." سادت لحظة صمت. أطفأت جهاز التلفزيون. لف المكان صدى سؤال معلق. قام سعيد من مكانه، جلس على الكرسي المقابل لها، وضع ذراعيه على ركبتيه. نظر إليها طويلاً ثم قال بصوت جاد: "عايده أنا أفهم ما تقولينه عن نفورك من العمل في ضوء المتغيرات الجديدة، ولكن من حقي عليك أن أعرف هل سيكون لي مكان في الحياة الجديدة التي ترسمينها لنفسك." أرتعش صوتها وهي تقول: "لا أعرف يا سعيد صدقني لا أعرف. كل ما أعرفه هو أنني أريد أن أهرب من بوش هاوس وكل ما فيه. لا تنسى أنه مازال لديك عملك، أما أنا فأفكر جدياً بعدم العودة إلى ذلك المكان. لأنني أواجه عاصفة هوجاء أرفض أن أنحني أمامها. فحين يتم إلغاء وحدة إعداد البرامج، ستلتغي وظيفتي وكل ما يرتبط بها من عمل وسأجد نفسي أعمل تحت إمرة مجموعة الرؤساء الجدد الذين لا يملكون نصف ما لدي من خبرة وكفاءة؟

أنت نفسك لا ترضى لي ذلك يا سعيد." تنهد بعمق: "هل ستبحثين عن عمل جديد؟ أنا لا أستطيع أن أتخيلك بلا عمل. امرأة في حيويتك ونشاطك وإبداعك بلا عمل أمر غير منطقي." تضاحكت: "أقول لك الحق، لم أفكر بعمل جديد. أريد أن أحيل نفسي على التقاعد المبكر وسأحصل على مرتب تقاعدي يكفي لسد كل احتياجاتي. ثم لا تنسى أن إلغاء وظيفتي يعني أنني سأحصل على تعويض مادي محترم." همهم سعيد: "تتقاعدين؟ مازلت صغيرة يا عايده بينك وبين سن التقاعد سنين. يجب أن تجدي ما تحبي أن تفعليه بعيداً عن بوش هاوس، كما تقولين." همهمت: "المهم أن أبتعد، لأجد نفسي وأحسن التفكير. سعيد افهمني، أنا لا يمكن أن أرضى أن أكون مجرد حبة قمح تدور بها طاحونتهم الكبيرة. أنا عايده وهران يا سعيد."

تهدج صوتها. غطت وجهها بيديها وأجهشت بالبكاء. قام سعيد من جلسته ضمها إليه وهمس: "حبيبتي عايده. أفهم تماماً حزنك وغضبك من كل ما حولك ولكنني لا أريد أن تبتعدي عني." همهمت وسط دموعها: "أنا أبتعد عن نفسي يا سعيد، أبتعد عن نفسي." استكانت في حضنه. هدأ بكاؤها. رفعت وجهها نحوه. رأت حزن عينيه أحست بقلبها يعتصر. مست شفتيه بشفتيها. احتواها بين ذراعيه وقبلها. همس: "عايده، شعوري نحوك ازداد قوة مع الأيام. قلت لك مراراً إنني سأظل أحبك حتى آخر أنفاسي. أرجوك لا تتركيني، لأنني أصبحت لا أستطيع أن أتخيل الحياة بدونك." رفعت عينيها نحوه. بدا وسيماً رغم حزن عينيه. همست: "أرجوك يا سعيد لا تضيف لعذابي. روحي الآن مثل قدح من الكريستال تهشم وتحول إلى فتات. عليَّ أن استجمع فتات روحي." احتضنت وجهه براحتيها وقبلته. عادت تنظر في عينيه: "أنا أيضاً أحبك. بل لم أعرف الحب إلا معك. لكنني الآن أحتاج لأن أستعيد ما تناثر مني." ضمها إليه: "حبيبة عمري كوني بأمان وتذكري أنني أحبك ولا أريد أن أفقدك لأني إن فقدتك سأفقد نفسي."

استفاقت على خدر شديد في ذراعها التي توسدتها في إغفاءتها القصيرة. استلقت على ظهرها ورفعت ذراعها في الهواء ليسري بها الدم. كان ضوء النهار يملأ الغرفة، نسيت الستائر مفتوحة. سمعت أصواتاً تبتعد وتقترب وأبواباً تغلق وعربات طعام تصدر أصواتاً مع حركة الأطباق والفناجين التي تحملها. نظرت في ساعة يدها، العاشرة وخمس دقائق. أسرعت إلى الحمام، وقفت تحت الدش. تركت الماء يتسلل إلى شعرها القصير. آه لو يعرف حلاق الأمس ماذا حل بتسريحته. أخرجت الطقم الكتان البيج من خزانة الملابس، بنطلون وجاكيت وقميص مقلم بالأخضر. وضعته على السرير وبدأت ترتديه. اتصلت بخدمة الغرف وطلبت قهوة. وضعت حقيبة سفرها الصغيرة على السرير وبدأت تضع فيها أغراضها القليلة التي تناثرت في الغرفة والحمام. انتهى احتلالها لهذه الغرفة، ستتركها للمحتل القادم. طوت الفستان الدانتيلا الأسود ووضعته في الحقيبة بعناية. احتست قهوتها. جففت شعرها، لمست وجهها بشئ من المكياج الخفيف. نظرت في الساعة، الحادية عشرة الا ربعاً. هكذا هي دائماً، تتحدى أي امرأة تستطيع أن تجاري سرعتها في إعداد نفسها للخروج.

حملت فنجان القهوة إلى الشرفة الصغيرة لتغازل النيل. جلست على المقعد الصغير. كان الشارع مزدحماً بالسيارات والمارة وقد أصطف باعة الصميط واللب والترمس على امتداد سياج النهر، وهنا وهناك شاب وشابة يجلسان متقاربين يتطلعان إلى النيل. هل تنتظر أن يتصل بها، ماذا لو تأخر؟ هي لا تعرف حتى رقم هاتفه. قال إنه سيكون في الفندق عند الحادية عشرة. دخلت إلى الغرفة. حملت حقيبة سفرها الصغيرة وهبطت إلى صالة الاستقبال. أعد لها الموظف المسؤول أوراق حساب الفندق وهو يقول باسماً: "أرجو أن تكوني راضية عن إقامتك معنا." شكرته ببضع كلمات مجاملة. سمعت صوت سعيد خلفها: "صباح الخير. أنا هنا منذ بضع دقائق أنتظر دقات الساعة." التفتت إليه. تضاحكت: "أي ساعة؟" أسرع يقول:" بيغ بن لتعلن تمام الحادية عشرة صباحاً. لم أنس دقة مواعيد عايده وهران." ابتسمت. وجهت كلامها لموظف الفندق: "أرجو أن تلغي التاكسي الذي كان من المفروض أن يقلني إلى المطار." حمل سعيد حقيبة السفر الصغيرة وسار معها إلى باحة الفندق الخارجية. توقف قرب السيارة. كانت سيارة حديثة لا علاقة لها بتلك السيارة الصغيرة التي كان يحشر نفسه فيها ويسوقها في أحياء دمشق القديمة. فتح الباب وهو يقول: "هل تناولت الفطور؟" همست وهي تجلس على المقعد: "شربت قهوة." ابتسم: "هل يمكن أن أدعوك إلى فطور قاهري؟" وضعت النظارة الشمسية على عينيها وهي تقول: "بشرط أن لا نتأخر على موعد السفر."

جلس في مقعد القيادة. نظر إليها باسماً: "لم يتغير فيك شئ. دائماً حريصة على المواعيد. يا ستي طيارتك الساعة الخامسة. يعني تحتاجين أن تكوني في المطار في الثالثة والنصف." صمتت. هو الذي لم يتغير فيه شيء، مازال على وسامته ولطفه. لم تره منذ خمس سنين مذ أخبرته أنها تريد أن تسافر لتزور والدتها في بيروت. سافرت إلى بيروت واستعادت حلاوة اللقاء بنوال وعبد المحسن. في إحدى الأماسي، قالت لها نوال إن سعيد اتصل بها ليسأل عن أخبارها. صرخت فيها كعادتها: "حرام عليك يا عايده. يقول إنك لم تعطه رقم هاتف بيت والدتك، وأنك لم تتصلي به ولا مرة خلال رحلتك. أنت في بيروت منذ أكثر من أسبوع، لذلك اتصل بي ليطمئن عليك." همهمت: "ربما نسيت. كنت مرتبكة. لا أدري يا نوال." صمتت نوال ولم تلح في السؤال.

حين عادت إلى لندن بعد انقضاء إجازتها الطويلة، اكتشفت أن سعيد ترك العمل في الإذاعة بعد سفرها، وذهب إلى دمشق ليشغل منصباً مهماً في وزارة الإعلام السورية. مرت سنين منذ لقائهما الأخير. افترقا على كلمات الحب ولم يلتقيا بعدها أو يقولا غيرها. لم يتصل بها أبداً، رغم أنه كان يعرف رقم هاتفها وعنوان منزلها. ولم تبحث هي عنه. تشاغلت بحياتها الجديدة. ها هو اليوم يأخذها لتناول الفطور. لم ترفض دعوته، ولم تنم ليلتها منذ التقته في ساعات الفجر الأولى أمس.

جلسا في مطعم أنيق يطل على النيل في أحد فنادق منطقة الزمالك. همست مأخوذة الأنفاس: "يا الله ما أجمله. كلما التقينا أجده متجدد السحر." ابتسم سعيد وهو ينحني بقامته نحوها: "هل أخذت منه حصتك؟" همهمت وهي تتابع حركة الموج الهادئ: "أخذت وآخذ المزيد منها الآن." جاء نادل المطعم. طلب سعيد الفول والطعمية واللوازم. تضاحكت عايده: "ترى هل سيكون مذاقه كالمطاعم الشعبية أم سيكون فول بخمس نجوم؟" تعالى ضحك سعيد: "ألم أقل لك لم يتغير فيك شئ. ما زلت عايده التي أعرفها." أسرعت تقول: "تكذب. تغير فيّ الكثير يا سعيد صبحي. كبرتُ وازداد وزني قليلاً وصرت أكثر واقعية." تأملها لحظة: "هذا ما تظنينه. أنا أراك كما كنت." تضاحكت: "شكراً لك وأنت ماذا فعلت خلال تلك السنين؟" أسرع يقول: "تركت لندن بعد سفرك بفترة قصيرة، وعدت إلى دمشق، عملت وسكنت بيتي الدمشقي القديم. هل تذكرينه يا عايدة؟" كان في عينيه ذاك الحزن الذي تعرف. أحست أنها أخطأت بالمجيء معه. أدارت وجهها نحو النافذة وراحت تتابع حركة النيل. سمعته يقول بصوته الهادئ: "لم هجرتني يا عايده؟ هل تعرفين كم تألمت وتعذبت لكنني لم أحقد عليك ولا للحظة واحدة. كنت أقول لنفسي عايده التي أعرفها لا تفعل شيئاً دون أن تفكر فيه ملياً. لا بد أن لها أسبابها. لكنني لم أجدها.

قولي لي أنت لم اخترت البعاد والهجر؟" استدارت نحوه. التقت العيون. عاد يهمس: "حاولت كثيراً أن أجد تفسيراً منطقياً لهجرك. رفضت تماماً فكرة أن حبك لي قد انتهى. رفضتها لأنني عجزت عن محو حبك من قلبي. كنت أشعر أن عليَّ أن أقتلع قلبي من صدري لأتخلص من حبك. لكني في نفس الوقت رفضت أن أفرض حبي عليك، خفت أن أنكث بوعدي الذي قطعته لك في دمشق وأفتت قلبك. عايدة يجب أن تفهمي أن حبي لك حب يدخل القلب مرة واحدة في العمر، يملأه عن آخره، يفترش أرضه وجدرانه، ولا يترك فيه مكاناً لحب آخر. لذلك يقولون إنه لا يتكرر، ومن يذوق هذا الحب ويفقده، لا ينساه أبداً ولا يبحث عن حب جديد يعوضه عنه."

فجأة أطل عليهما النادل الذي جاء بالطعام على صينية كبيرة وبدأ يفرشه أمامهما. هاجمتها رائحة الطعام. أحست أنه آخر ما تريده. تنحنح سعيد وهو يقول بابتسامة كبيرة: "تفضلي يا عايده كلي شيئاً أرجوك. أنا شخصياً جائع جداً." وضع بعض الطعام في طبقه وراح يقلب فيه شوكته. سمعها تقول ببطء شديد: "أنا لم أهجرك يا سعيد صبحي أنا اعتزلتك، اعتزلتك كما تعتزل الفنانات الناجحات فنهن وهن في قمة المجد كي لا تغدر بهن الأيام وتخبو الأضواء حولهن؟ أنا فعلت الشيء نفسه، اعتزلت كل ما كنت أحبه وأنا في قمة حبي له. اعتزلت عملي واعتزلتك. اعتزلت كل نجاحاتي، فأنت يا سعيد كنت جزءاً مهماً من النجاح في حياتي، الحب الذي أرضاني وأسعدني. خفت أن أفقدك وأظل أبحث عنك ولا أجدك. خفت حتى من فكرة أن أبحث عنك بعد أن وجدتك." كان يتابعها بعينيه وقد تجمدت ملامحه. أخذت نفساً عميقاً وعادت تقول: "أنا يا سعيد صبحي أسميتك، الفصل الخامس في حياتي، فأنت لم تكن صيفي ولا خريفي ولا شتائي ولا ربيعي، بل فصلاً خامساً فزت به دون الآخرين. فصل أُضيف لعمري، لونه وأبهجه حتى حسبته عمراً جديداً. لذلك كنت أخاف أن يخبو حبك يوماً. هربت منك وأنت تحبني خوفاً من يوم لا تحبني فيه. الحقيقة بكل بساطة هي أنني لم أشأ أن أخسر كل شئ مرة واحدة، فتركت عملي كي يبقى في ذاكرتي كما كنت أريده وأحبه، واعتزلتك لكي أظل أحبك."

كانت عيناه معلقتان على وجهها لا ترمشان، ويده تمسك بالشوكة فوق طبقه. اتسعت ابتسامتها وهي تقول: "ما فعلته عايده وهران ببساطة، هو أنها لملمت أوراقها وأغلقت ملفاتها وغنّت كما تفعل البجعة قبل أن تموت، أغنية التم، أغنية النهاية التي تدرك أنها قادمة وتريد أن تتم بطريقة ترضيها لتموت راضية." تنحنح سعيد. بدا كأنه على وشك البكاء. وضع الشوكة فوق الطبق ابتلع ريقه، شرب قطرات من الماء. تنحنح من جديد. همهم بصوت حاول أن يجعله متماسكاً: "عايده، أنا لم أستطع أن أفهم ما كان يدور في رأسك. رغم ذلك فكرت مئات المرات أن أتصل بك. كنت أمسك السماعة وأدير رقمك، ثم أتوقف قبل أن أصل إلى الرقم الأخير. خفت، خفت

أن يقود الحديث بيننا إلى ما لا نريد له أن يقال. لكنني كنت دائماً أتسقط أخبارك من نوال التي وعدتني أن لا تخبرك. وحين علمت أنك رشحت للجائزة هذا العام قدّرت أنه آن الآوان لأراك بعد كل تلك السنين."

خيم عليهما الصمت طوال الطريق إلى المطار. كان هناك إحساس بعدم جدوى الكلام. دخلا صالة المطار. وضع حقيبتها على عربة، ووقف أمامها. فجأة وبلا مقدمات ضمها إليه. استكانت في حضنه. أغمضت عينيها. أحست بدقات قلبه تتمازج مع نبض روحها. همس وهو يدفن رأسه في رقبتها: "اشتقت لك اشتقت أكثر من الشوق نفسه." أبعدته عنها برفق وهي تقول باسمة: "سعيد نحن في القاهرة. ماذا سيقول الناس حولنا؟" تضاحك وهو يمسك بيدها: "سيقولون سوّاح أجانب بيحبوا بعض فأنا كما تعرفين أحبك وسأظل أحبك حتى آخر أنفاسي."

امسكت بعربتها، سارت خطوة، توقفت واستدارت نحوه وهي تقول: "نسيت أن أسألك، هل لديك أسرة؟" هز رأسه باسماً: "نعم. فليس بعد الحب الذي يملأ القلب، سوى الزواج من امرأة يمكن أن تكون سكناً وأماناً ليبقى ذاك الحب في مكانه في القلب. تزوجت ابنة خالتي التي أعرفها من سنين الطفولة، ولدي ابنة عمرها سنة ونصف." التمعت عيناه ببريق فرحة. همست: "مبروك يا سعيد. دير بالك على بنوتك." سارت خطوة. التفتت إليه من جديد: "شكراً على كل شئ. لقاؤك كان جائزتي الحقيقية." سارت خطوات. دخلت بوابة المسافرين. سمعته يناديها: "عايده." توقفت والتفتت نحوه. كان يقف وقد رفع ذراعه في الهواء. ابتسمت وهي تهز رأسها متسائلة أن ماذا. عاد يقول بصوت متهدج: "عايده. اسمها عايده، ابنتي الصغيرة اسمها عايده."

وقفت تنظر إليه. كان يبدو في غاية الوسامة. تمنت أن تعود لتحتضنه مرة أخرى. رفعت يدها محيية. استدارت وعادت تدفع عربتها وتختفي في زحام المطار.

سلوى جراح

لندن

كانون الثاني/يناير 2005